



فؤاد حداد

السمندل

روايــة

فؤاد الحلو

الكاتب في سطور

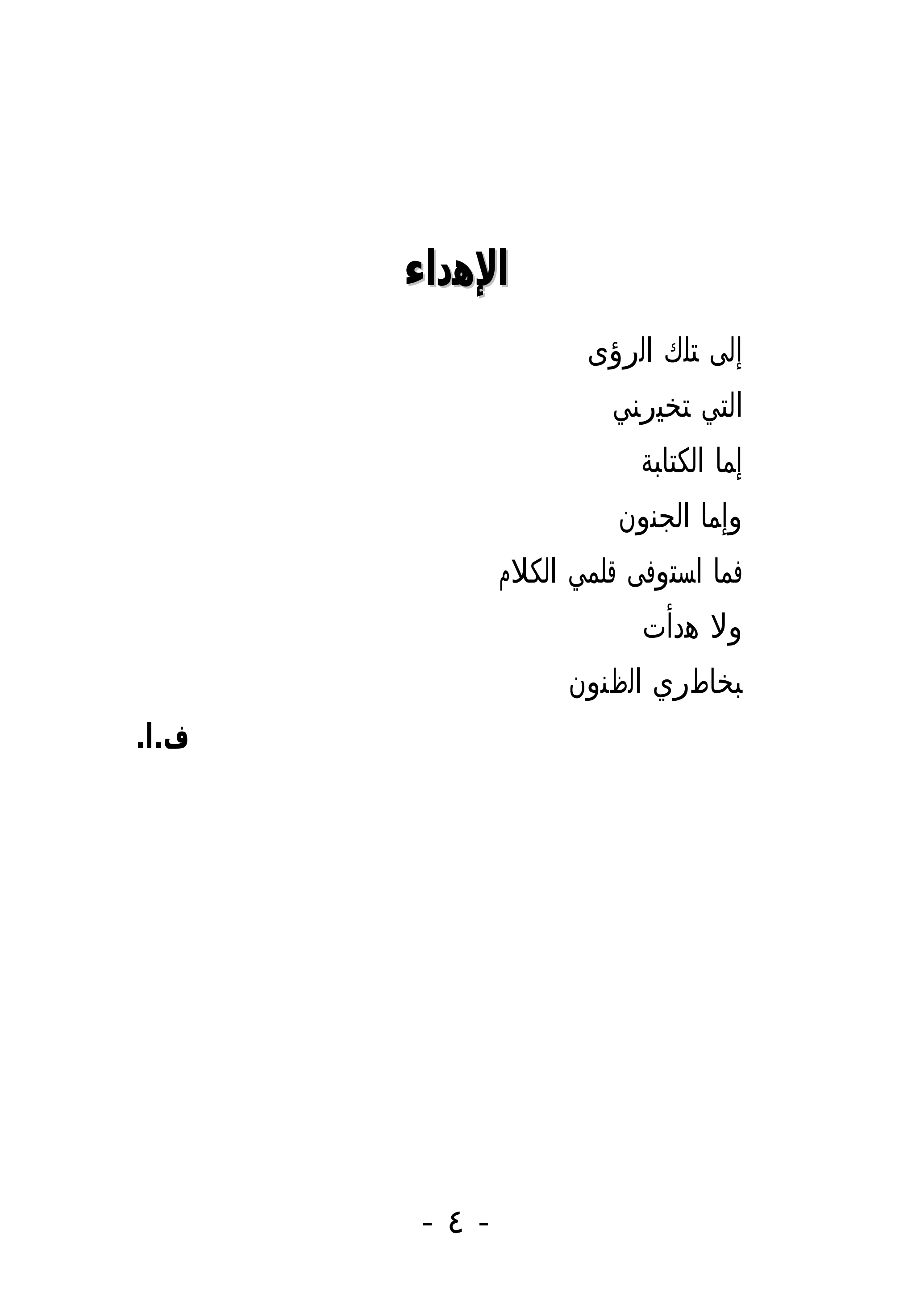
- فؤاد محمد إبراهيم (فؤاد الحلو).
- مواليد الإسكندرية – القباري.
- ليسانس حقوق – جامعة الإسكندرية.
- مدير عام المطبوعات والصحافة الأجنبية لفـرع مينـاء الإسكندرية البحري.

صدر له:

١. عناقيد المستحيل – رواية – عـام ١٩٨٩ – مطبوعـات مديرية الثقافة، دراسة أ. د. محمـد مصـطفى هـدارة، والكاتب المسرحي/ محمد سلماوي، وإذاعيا د. سيد حامد النساج.
٢. إلا الليل – مجموعة قصصية – عام ٢٠٠٤ – مطبوعات نادي القصة بالإسكندرية، دراسة أ. د. مجـدي توفيـق، أ. د. مصطفى الضبع، أ. د. محمد زكريا عنـاني، أ. د. السعيد الورقي، الشاعر أحمد فضل شـبلول، وتلفزيونيـا الناقد الكبير محمد محمود عبد الرازق.

تحت الطبع:

١. شيطان كريستال – رواية.
٢. الظلال (فتات زجاج) – قصص قصيرة.

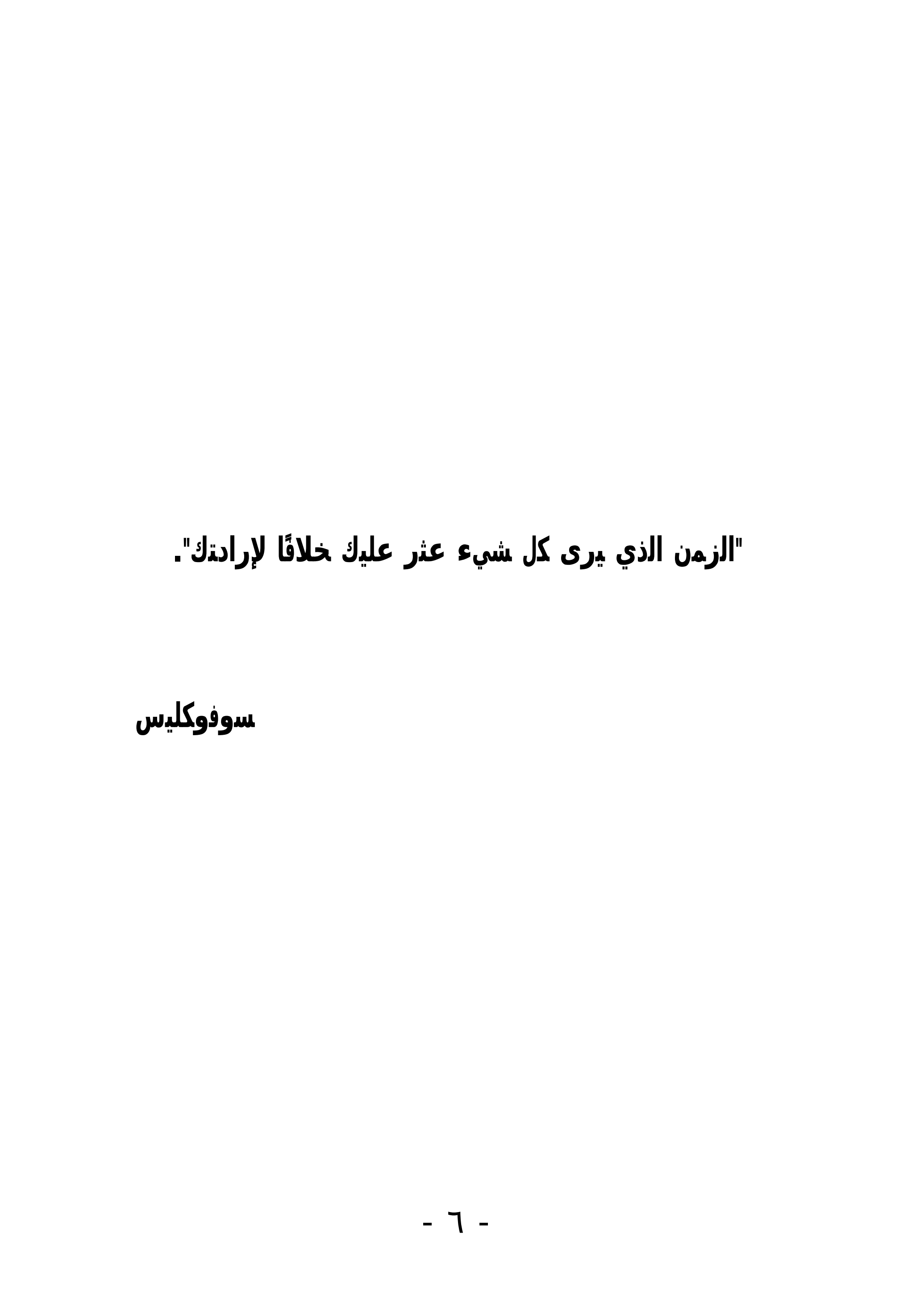


الإهداء

إلى تلك الرؤى
التي تخيرني
إما الكتابة
وإما الجنون
فما استوفى قلمي الكلام
ولا هدأت
بخاطري الظنون

ف.ا.

فهرس



"الزمن الذي يرى كل شيء عثر عليك خلافًا لإرادتك".

سوفوكليس

مع غروب شمس يوم ٣٠ يناير عام ١٦١٢، اقتحم (الجفري) – خادم مولاك الأمير زيدان الحسيني – قاعة (قبة سعد السعود) هاتفًا:

- مولاي زيدان، أسر الإسبان كل سفنك.

رفع الأمير رأسه، محدقا في القبة وهمس:

- بما فيها الكتب؟

- و.. الكتب، ثلاثة آلاف كتاب، نقلوها إلى (الأوسكوريال).

صمت برهة وقال:

- لم يبق من كُتُبٍ سوى ما حوت مخلاتك بجوارك يا مولاي.

غادر الجفري القاعة، أغمض الأمير عينيه، وفوق الكتاب الذي كان يطالعه، هوى رأسه فوق صفحاته غائبا عن وعيه.

قصر الزاهي

- مراكش -

الفصل الأول

السمندل

في خطى ثابتة، تقدم دون (بيدرو دي لارا) نحو كرسـي الكاردينال (خمنيث)، تردد جدران بلاطه وقع حذائه، مـا إن اقترب من كرسيه حتى جثا، ولثم طرف مسوحه وظهر كفه، بادره الكاردينال:

- حسنا ما فعلته يا دون.. أسمعني الأمر كما وقع.

استقام الدون، وأمسك بساعد الكاردينال يعينه على هبوط السلم المرمري:

- كانت جولة لنا بسفننا، نجوس بسواحل مراكش.

قاطعه الكاردينال:

- ولا تنقطع عن هذا.. بعد أن أغلقنـا خلـف العـرب المسلمين (المور) بوابة الطباق السـبع، احـذر يـا دون أن يتسرب من الجنوب كل ما يمت للمور إلينا، إن استطعت أن

تحول دون طرح البحر وأعشابه على شواطئنا فلتفعل، لـو كان للبحر رد لرددنا عليهم أمواجهم وأمواجه.

انحنى الدون:

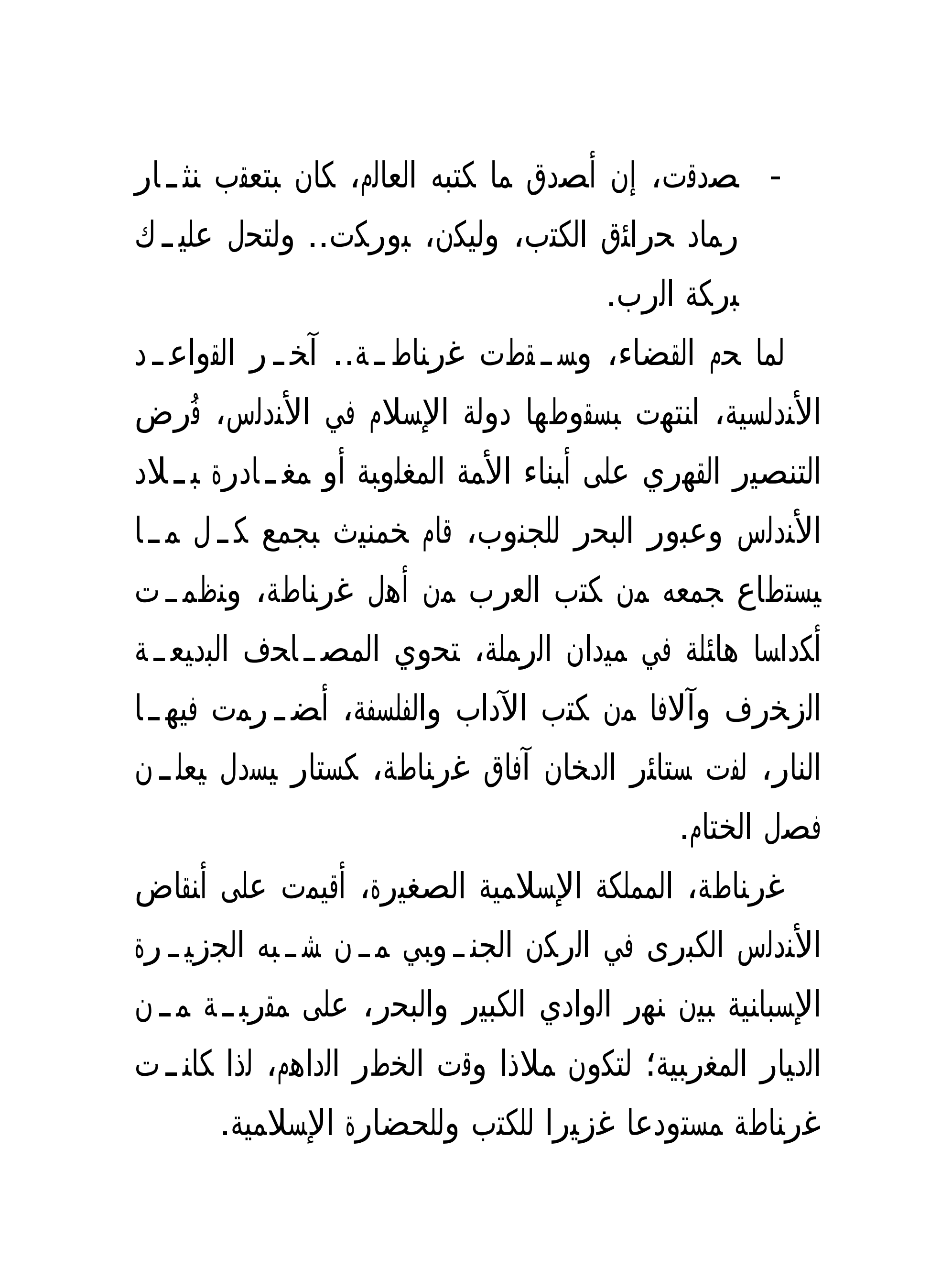
- طب نفسا سيدي الكاردينال.

أكملا سيرهما فوق البسيط المخملية، واستطرد الدون:

- في ثغر (آسفى) طالعتنا سفن زيدان الحسيني، حاملة تحفه وثلاثة آلاف سفر، كان زيدان قد اضطر تحـت ضغط خصومه إلى مغادرة عاصمته.. مراكش.

توقف الكاردينال:

- إذن.. هي المكتبة الزيدانية.
- هي سيدي في الفلسفة، والأدب، والـدين، والطـب، والعلوم والفلك.
- وأحرقتم كتب الأدب والدين؟
- بالطبع سيدي، قبل المحارق، يتم الفصل بين أنـواع الكتب، كما أمرتم أبقينا على العلوم والطـب والفلـك والفلسفة – ليس كل فلسفتهم – وأحرقنا باقي الكتـب في ميدان (الرملـة)، لسـنا أول مـن أقـام للكتـب المحارق، أشعلها ملوك وأمراء قبلنا.



- صدقت، إن أصدق ما كتبه العالم، كان بتعقب نثار رماد حرائق الكتب، وليكن، بوركت.. ولتحل عليك بركة الرب.

لما حم القضاء، وسقطت غرناطة.. آخر القواعد الأندلسية، انتهت بسقوطها دولة الإسلام في الأندلس، فُرض التنصير القهري على أبناء الأمة المغلوبة أو مغادرة بلاد الأندلس وعبور البحر للجنوب، قام خمنيث بجمع كل ما يستطاع جمعه من كتب العرب من أهل غرناطة، ونظمت أكداسا هائلة في ميدان الرملة، تحوي المصاحف البديعة الزخرف وآلافا من كتب الآداب والفلسفة، أضرمت فيها النار، لفت ستائر الدخان آفاق غرناطة، كستار يسدل يعلن فصل الختام.

غرناطة، المملكة الإسلامية الصغيرة، أقيمت على أنقاض الأندلس الكبرى في الركن الجنوبي من شبه الجزيرة الإسبانية بين نهر الوادي الكبير والبحر، على مقربة من الديار المغربية؛ لتكون ملاذا وقت الخطر الداهم، لذا كانت غرناطة مستودعا غزيرا للكتب وللحضارة الإسلامية.

في الأوسكوريال، المكتبة الملكية، التف الكرادلة والقساوسة والمطارنة حول الكاردينال خمنيث، بسطت على المناضد كتب وأكتاف من الأسفار، تكاد في علوها تلمس السقف، انكب عليها جيش من الرهبان ونساخ الأديرة، أضنوا عيونهم في التصنيف والفهرسة، تجري الأصابع على لفائف وقوائم بأسماء الكتب ومؤلفيها.

قال الكاردينال:

- هل وجدتموه؟

أجابوا:

- ليس بعد سيدي.

خرج الكاردينال إلى الشرفة، يواجه الجنوب، الشمس تغرب عن يمينه، تنزلق في اصفرار باهت نحو مغربها، تتطاحن به الأفكار.. أين ذهب هذا الكتاب؟ والذي يعرفه جيدا وأن من يطالعه يقف على سر الأسرار.. ربما يفتح له طريق العودة إلى ربوع بلاده.. إسبانيا.. العرب هؤلاء الأصاغر.. المور قد يسلكون كل الطرق والحيل لاستعادة المجد التليد على أرض ليست أرضهم. قال الرهبان.

- (الكتاب لم يدخل الأندلس، تخلو القوائم منه إنـه فـي حوزة زيدان الحسيني.) تُرى هـل هـو كتـاب (أقـراص الزمرد)[1] .. كتاب السحر الأم الذي وضعه (جوزيفوس) في القرن الأول الميلادي، وترجمه العرب إلى العربيـة وهـو نسخة غير مطبوعة وإنما مسطرة بخط اليد، فهـو إن طُبـع يفقد خواصه السحرية كما هو مسطر في صحفاته، تنتهي قوة سحره في عصور تالية حينما تتكشـف – بـالاختراع آلات الطباعة – وهي نبوءة تحققت. يحوي الكتاب الكثيـر مـن التعاويذ والترانيم والطلاسم والطقوس لاستدعاء الجان وقوى الشر، كما أنه لم يعثر على كتاب (مفتـاح سـليمان) الـذي وضعه (هيريز تريزيجيستاس) وهو شـرح لـلأول، قالـت جواسيسه في مراكش إنهم شاهدوا (أقراص الزمرد) بقصـر زيدان.. ربما سرب برا.. نحو الشرق.

استدار مقتحما القاعة زاعقا:

- أين دون دي لارا؟
- سيدي الكاردينال.

---

(1) ورد ذكره للمرة الأولى بكتاب (الإنسان والسحر والشـيطان) ثـم تتابع ذكره في كتب السحر الأسود.

- عليك أن تدفع بفرسانك برا في محاذاة سواحل إفريقيا، يقول ظني – وهو لا يخيب – إن أهم كتب الزيدانية سربت برا.

همس أحد المطارنة:

- إن سمحت نيافتكم، إن ما يفيدنا ويفيد أوروبا من خلفنا، هي تلك الغنيمة التي لا تقدر بثمن – لنا ولأجيالنا – كتب العلوم والرياضيات والطب، إننا بتوحدنا على سيف واحد استعدنا إسبانيا، ما يضيرنا إن سرب زيدان كتب السحر؟ لم نستعد (بلنسية) و(شاطبة) و(دانية) و(مرسِية) بمثل هذه الكتب، وإنما بدم أبناء أوروبا ومباركة الرب.

همس الكاردينال:

- أخشى أن أُسأل – إن عادوا يوما – لم تركت خلفهم ثغرة؟
- لن يعتبوا أرض القوط، وغاليس، وجبال البرانس، سدت من خلفهم الجدر وارتفعت دونهم السدود.

قال الدون:

- صدق المطران، ولم يبق لديهم من إسبانيا، سوى مرثية (الرندي) مكثوا قرونا بأرضنا، وخرجوا فقط بمرثية:

كان ما كان من ملك ومن ملك

كما حكى عن خيال الطيف وسنان

تنهد الكاردينال محدقا في اتجاه الجنوب وقال:

- أخشى أن يصحو هذا الوسنان.. من عميق نومه.

* * *

قطع الجفري الطريق على جبال الأطلس الصغير في ثلاثة أشهر، اعتلاها مع حلول الشتاء، قاطعا الطريق من (سيدي بنور) مساحلا (ثغر آسفى) و(الصويرة) إلى (أغادير) وفي (أنيزكان) لحقته الحمى.. مكث في قرية الصيادين بعد أن عولج بمرارة السمك ونقيع العشب البري، استرد قواه واستكمل رحلته فوق فرسه، ودخل (تفراوت) حيث السهوب المدارية، عبر الممرات الجبلية بين مرتفعات الأطلس، على البعد طالعته أبراج قلعة (بوزكارن).

شيدت قلعة بوزكارن على الطراز المغربي القديم، تحيط بها الأسوار الشاهقة، لا توجد على القلعة حامية أو حراسة،

بوابتها تفتح لمن يدفعها للداخل، لا يقيم بداخلها سوى (السمندل) إقامة جبرية، بأمر من كل من تتابع على حكم مراكش، عبر الجفري البوابة، في زحف همجي انتشرت النباتات فوق الأرض، تترامى الأشجار الباسقة حولها وتلفها الأحراش، تحجب القلعة عن الأنظار.

اعتلى الدرجات الرخامية، يدهس تحت قدميه ثمارا أسقطها النضج، وأوراقا يابسة نفضتها عنها الأشجار، وأخرى شقت طريقها ونمت بين فواصل الدرجات، دفع الباب، فتح للداخل، تئز مفصلاته الصدئة. تقدم فوق بساط رمادي، يموج نثار الغبار حول ساقيه، وكلما خطا فوق البساط وتوغل في الداخل في نهاية الممر، كان بصيص الضوء يشع من شمعة فوق نضد يجاور مقعد عالي الظهر.. حدق في المقعد.. لم تطعه قدماه على المضي أكثر.. كان أمام السمندل، همست:

- كنت في انتظارك.

جثا على ركبتيه، أسرعت تأمره بالوقوف، مما شجعه على الحديث:

- وهل كنت تعلمين بقدومي سيدتي؟

- أقلقت نومي منذ أن لحقت بك الحمى في (أنيزكان).. خيرا ماذا وراءك؟

- مولاي زيدان سيدتي؟

- زيدان من؟

- مولاي زيدان.. ابن الملك أحمد المنصور.

نفثت في ضيق، فارتعدت شُعيلة الشمعة.. وكادت تخبو.

تراجع للخلف فيما كانت تميل السمندل للأمام تعدل مـن جلستها، لاحت ملامحها القاسية وتجاعيدها تخرط وجنتيهـا، ترف حولها نثار الأزمان الغابرة، قالت:

- ماذا عن زيدان هذا؟

- غام وعيه، وراح في غيبوبة، انتابته في البدء نوبـة بكاء، ثم راح في إغماءه لم يفق منها، دخلنـا عليـه وجدناه نائما فوق كتاب كان يطالعه.

أطلقت ضحكة من فمها الأدرد كجوف كهف مظلم، رددت الجدران رجع ضحكتها، اختتمتها بصرخة مكبوتة:

- هه.. ما بال الأندلس، ما بال الأمير الباكي، ابكو كما تبكي النساء على ملك لم تحسنوا الذود عنه.. وبعد؟

- قيل لي أن أقصدك في قلعتك.

- تقصد محبسي.
- إن شئتِ لك أن تبرحيه.
- ليس بعد.. وأين أطباؤكم؟
- عجز الأنبغ والأشهر في أمره.
- ثم لجأتم لي.. الحق فيما رأيتموه.. ما نفع الطب؟ مـا نفع العلم؟ ما نفع العقل؟ تبدد من بـين أيـديكم قمـم العلوم والمعرفة.. ذهب ما ذهب رغم زهو الأندلس.. وما أدراك ما الأندلس.. قلتم لم لا نجرب السـمندل.. لنجربها، حيث عز عليكم العقل وعلومه.

تعد قلعة بوزكارن، من أقدم قلاع أطلس بأقصى جنـوب مراكش، والتي تتناثر على امتداد سلسلته الجبليـة الشـاهقة وتكلل هاماتها الثلوج، عدة قلاع أخرى يودع فيها على سبيل الاعتقال المعارضون والمنشقون على نظام الحكم المغربـي، لكن قلعة بوزكارن تفردت بأنها معقل السحر ومعتقل السحرة والساحرات، نسجت حول القلعة الأساطير والخرافات، مـن بينها: أنها تنتقل في أماكن عدة، وفي عهود سابقة لم يعثـر عليها فوق جبال أطلس، أبلغ بعض البحارة أنهـم شـاهدوا أبراجها تطل عليهم من فوق جزيرة (ماديرا) البرتغالية فـي

مواجهة ساحل مراكش من ناحية المحـيط، تحـف بالقلعـة غابات السنديان، والفليني، تستشري الحلفا وتكاد تخفيها، في برجها الشرقي كانـت تُـدفع داخلـة سـاحرات إفريقيـات ويهوديات ومغربيات، في سراديب خفية، تحت القلعة دفنـت قماقم وتعويذات وأيقونات وأشرطة مـن الحريـر الأسـود، عقدت النفاثات عليها العقد، وتمائم وأعداد هائلة مـن أوراق (التاروت) أحرقت وجمع الرماد داخـل الأقمشـة السـوداء الملازمة للكوتشينة (كأطر) وهي من لزوم التـاروت التـي تكشف الغيب وتقرأ الطالع – في معتقد كـل مـن يمـارس السحر – على درجات السلم المؤدي للقبو، تناثر ما تبقى من التاروت.. كارت السيف، وعذراء الينبوع، والكأس المهشمة، ونجمة الفجر.. وظل القمر منعكس على الماء بجوف بئر.

آخر من زج بها داخل القلعة، السمندل، فـي روايـة أن محاكم التفتيش قضت بحرقها، فخرجت مـن النـار دون أن يلحقها ضرر، فزجوا بها داخل مركب نحو الجنوب، وسرى أمرها في بلاد المغرب يسبق وصولها، وسـيق بهـا إلـى بوزكارن.

كل من جلس على كرسي مراكش، لا يحفل بهـا، رغـم الإفراج عن بعضهن بعد أن مس عقـولهن المـس وأذهـب الدهر لبهن، في حين كان يدفن من ماتت منهن في غابـات السنديان خلف القلعة، شغلت أحداث الأنـدلس وصـراعات مراكش الداخلية العقول.. فكادت تذهب ذكراها مع ما أذهبته الأيام وكر الأزمان.. تنهدت وأشارت على الجفري:

- فوق أي كتاب كان رأسه منطرحا؟

مط شفتيه:

- لا أتذكر يا سيدتي.
- كل الأمور بما فيها شفاء أميركم متوقفة علـى هـذا الكتاب.
- كان نهما للقراءة، هو من جمع المكتبـة الزيدانيـة، أسرها الإسبان ونقلوها إلى إسبانيا، كان مولانا، شفاه ا ، قد نقل معها كل ما يخصه من متاع الدنيا، آثـر أهله البقاء في الأندلس.. تنصر منهم من تنصر.

خبت شعلة الشمعة، وعم صمت مهيب على القاعة، تسلل نور الفجر من بين خصاص وزجاج القبة الملـون بـألوان باهتة.

هبت السمندل تتكئ على عصاها، يسمع لها وقع يوقظ كل وسنان، هتفت:

- إذن تطلب أن يعاد للأمير وعيه؟
- أستحلفك بكل غال وما رخص.. لم يبق لنا إلا أنت.
- لدي شروط.
- إن شئت ملكت ما ملكت بلقيس من سبأ.

ردت ممتعضة:

- كما لو كان يطلبني سليمان لا زيدان.

استطردت وهي تتباعد عنه:

- اذهب واسترح أينما شئت، في الليل أقبل ها هنا وأنـا وما أرى، فإن قررت الرحيل معك فإليـك بالشـرط الأول: اخل قصر أميركم من سكانه وكل مـن يقـيم فيه.
- أهناك شروط أخرى؟
- ستأتي في حينها.. لا تتعجل.

أسدلت أوشحتها وتمتمت.. (تكثر من القـول.. فـي قضـاء حاجتك عجولا).

سارت بظهر محني، تدق عصاها الأرض، غابت - بعـد أن عبرت مدخل القاعة - عن بصره.

هوى فوق أريكة انخسفت على الأرض حشاياها، همـس لنفسه (قبحك ا   من عجوز شمطاء، لم تأذن لي بـالجلوس، رغم علمها بطول رحلتي) أراح للخاف رأسه، أغمض عينيه مسترجعا ما دار بينهما، فتح عينيه محدقا في معشقات القبـة المعتمة، يلح عليه سؤال: كيف ألمت العجوز بالحمى التـي لحقته في أنيزكان؟ تذكر أن حلما كان يأتيـه ويـراوده مـع اشتداد الحمى عليه، انجلت ثناياه واسـترجع تفاصـيله، إن السمندل في حلمه كانت تهرول في حيوية وليس في ضـعف ووهن، تتطاير خصلات شعرها القسطلي، عن عمر غـض وليس في شيخوخة غابرة، فتحت للداخل بوابـة بوزكـارن وبين لفائف ضبابية أشارت بكفها هاسمة (أقبل، فـي يـدي خلاص أميركم وفي يده – دون غيره – خلاصي، أقبل أيها الصبح أسرع في الخطو هلم إلي سوطك المشرق المضيء) غاص في قيعان النوم والشمس في رابعة النهار.

* * *

مع غروب شمس النهار، تفاقمت عتمـة وضـرب فـي أرجاء القلعة غبش يحجب الرؤية – يموج البصر ويخبو بين بصيص ضوء القمر – المنساب من بين المعشقات العلويـة، ونسائل من ظلال، لا تكف عن التحرك بين هنـا وهنـاك، انزوى الجفري في مكانه مضطرب الحواس، انتفض واقفـا، حينما تناهى إلى سمعه، وقع حوافر أيقن أنها ليست لحـوافر فرسه، استدار ظل السمندل مفترشـا طـول البهـو، جـاءه صوتها:

- هل صحوت؟ أقبل وأعني؟

كانت تجر خُرجا، أشارت عليه أن يحمله، ويضعه فـوق منضدة تتوسط البهو، حررت عقد الخرج، امتدت يدها تفصل فيما حواه من أغصان ونباتات وقالت:

- العيدان السوداء [1]، أعواد الهندي، البيضاء، أعـواد البحري، الأفضل الهندي فهو أشد حرارة.. وهذه هي أوراق (بنات الرعد) لنا معهـا شـأن بعـد السـحق والغلي.

فصلت أوراقا مبللة..

---

(1) كتاب (الطب والرقية وكيفية استخراج السحر) للإمام البخاري.

- هذا هو (الترنجبين)، الطل الذي أنـزل علـى بنـي إسرائيل، حسنا ما فعلت، لم أنس بخور (الإظفار) إنه للكمأة، سوف تسألني ما الكمأة؟ إنه نبت بلا بذور ولا سقي، يجلو نقيعه البصر ويبدد مـن عقلـه حجـب، الأعواد الأخرى فهي للطلاء، كـالمراهم، مـا بـين التنطيل والتكمين والتبخير والسعوط (خير ما تداويتم به السعوط).

سحقت حجرات بكفيها وقالت:

- تلك للحجامة (حجامة الرأس تنفع في سـبع، منهـا: النعاس).

ابتسم الجفري وقال:

- أراك عشابة وليس كما يشاع عنك.

- ماذا نسيت؟ انتظر.

أسرعت لزاوية في البهو.. بلعتها العتمة.. زفر ودهـش لأمرها، لم تعد السمندل تتكئ على عصاها.

بزغت في ضوء القمر الفضي، تحتضن علبة مصـدفة، عقدت خرجها وقالت:

- علينا أن نشد الرحال إلى مراكش هل أسمعتك الشرط الثاني؟

وقف أمامها صامتا.

جاء صوتها في حدة، تحمل نبرة محذرة:

- ما إن نغادر بوابة القلعة، إمض للأمـام، لا تلتفـت للوراء، إن اعتليت جبلا أو هبطت سهلا، إن عبـرت نهرا أو استرحت بقرية، فأنا خلفك أتبعك في خطاك.

قال الجفري:

- أحضرت لك فرسا.
- اطلقه.
- وأنت؟
- سأعتلي (العيدهور) [1] بغلتي، دائما تنتظرني.

(1) من أشهر أسماء البغال.

الفصل الثاني

مولانا زيدان الحسيني

كان طريق العودة إلى مراكش مختصـرا، لـم يسـاحل الجفري المحيط الأطلسي، دخل (أنيزي) والشمس تغرب عن شماله، طوال الطريق كان وقع العيدهور يتبعـه، لا يـدير للبغلة رأسه.

مكث في أنيزي عدة أيام، ومنذ خروجـه منهـا اعتلـى الأطلسي الكبير، تموج العواصف عبر الشعاب والصقيع، لم يشأ أن يأخذ قسطا من الراحة حينما هبط سـفوحه، وعنـد مشارف (تفراوت) ترجل منهكا، في قرية الرعـاة، تـزود بالماء والطعام في حين لم تظهر لناظريه السمندل وبغلتهـا، وذات صباح غادر تفراوت بعد أن شد رحاله. لم يحص مـا مضى من أيام، ما كان يشغل باله، هو مـا آل إليـه حـال الأمير، كان وأهله في خدمة ملوك وأمراء مراكش النساء في

حاشية الأميرات واللالات [1]، الرجـال والشـباب وحتـى الصبية كانوا ما بين الحرس والمقربين في البلاط، وعنـدما أعلن الأطباء في مراكش ومن قدم منهم من بـلاد الأنـدلس يأسهم من أمره، همست نساء القصر أن مرضـه أرضـي وليس أشهر لهذا الأمر من السـمندل، مـا إن ورد اسـمها بخاطره، حتى رنا إلى سمعه وقع بغلتهـا تتبعـه مباشـرة، استمر شاخصا بناظريه للأمام، ولم يلتفت.

بعد أيام طالعته (تارودنت) دخلها واستراح فـي جامعهـا القديم، متعبدا في ركن منه. على مشارف (وادي السـوس) تردد، الأفضل أن يستدير حوله دون الخوض فيه، فـالوادي مقبرة الرحالة، مع استدارته اتبعه مباشرة وقع بغلة السمندل، وكأنها تؤيد فكرته وتستحسنها، وهذا يجعلـه يـدخل مدينـة (أميزميز) وقد بلغ منه الإرهاق مداه.

مراكش، على مسيرة ثلاثة أيام، تزود بالماء والزاد، ثـم أرسل رسولا يسبقه إلى قصر الأميـر أن أخلـوا المخـدع الملكي وما يجاوره، السمندل قادمة.

---

(1) اللالات، جمع لالا: وهي كل ذات مقام رفيع.

لم يبق له مـن رحلتـه، سـوى الخـوض فـي الغابـة والأحراش، فهي أقصر الطرق إلى مراكش، مع استدارة منه حول الأشجار، نظر خلفه، فإذا بالعيدهور تنفخ من خنـابتي أنفها، وأثارت حوافرها غبـارا.. رغـم أن الأرض كانـت موحلة. أخذ يحث فرسه على العدو، لم يتوقف حتى خـرج من الغابة، طالعته صروح وأبنية مـراكش علـى مرمـى البصر، تدثر ولملم عباءته، ترك العنان لفرسه.. يسير الهوينا وقرر أن يغط في النوم.

أفضت التواءات الطريق إلى سور مراكش القـديم، تنبـه إلى وقع حوافر العيدهور فوق البازلت المرصـوف، عبـر البوابة المقوسة فكان عن يساره باب قصر مراكش.

ترجل عن جواده، قاده من لجامه، كانت الشمس جنينا في خط الأفق، ترمي ضياء بلـون البنفسـج، فتـذكر روابـي غرناطة، وحدائق قصر مولاه زيدان الفيحاء، لكم طالعه مثل هذا الشروق في ربوع الأندلس، من شرفات قصر المبـارك والزاهي والحائر وغيرها، أصبحت بعد سـقوط (إشـبيلية) مراكز وقواعد لملوك قشتالة؛ إذ خرج مولاه زيدان في شرفة قصره بمراكش يزفر منشدا:

أين القباب التي كانت محجبـة

فيها الملوك تفيض الجود والكرمـا

إنا إلى ا   قد حل المصاب وما

من حيلة في الذي أمضى وما حتما

شُيد لمولانا زيدان قصره بمراكش على هندسـة أشـهر قصور الأندلس، القصر الزاهي [1] لا ينفك يحادث سـماره، أن قبة قصره اسمها (سعد السعود) على نسق قبة الزاهـي، صنع (المعتمد) قسيما في القبة وأنشد:

سعد السعود يتيه فوق الزاهي

ثم استجاز الحاضرين فعجزوا، فصـنع ولـده (عبـد ا الرشيد) الشطر الثاني:

وكلاهما في حسنه متناهـي

وتحت قبة السعود بقصر الزاهي بمـراكش يرقـد فـي غيبوبته الآن مولانا زيدان الحسيني.

* * *

(1) مـن قصـور الأنـدلس؛ انظـر: **قصـور الأنـدلس** د. السـيد عبد العزيز سالم.

ما كاد الجفري يستدير خلف القصر، حتى لمح عجز العيدهور تتوارى خلف دغلة كثيفة.. بعد برهة، خرجت عليه السمندل، تشير أن يحمل خُرجها عنها، اقتربت وقالت:

- من الأفضل أن ندخل الزاهي من بابه السري، لكل القصور أبواب سرية.

تقدم حاملا خرجها، كان باب الزاهي السري عبارة عن درجات حجرية متآكلة تهبط إلى أسفل تجاور النافورة التي تتوسط حديقة القصر، بعد أن عبرا قبوا، صعدا سلما مرمريا أفضى إلى بهو من الأعمدة، تتماوج من فوق أعمدته الأقواس المزخرفة تشغل فراغاتها مقرنصات مذهبة.. كان القصر مهجورا، سارا في ممر (نجوم الدجى)، سقفه مخرم، كسيت خرومه بشقف بلورية على هيئة نجوم متناثرة، في نهاية الممر، حط الجفري حمله، التقط مفتاحا من جوف زهرية ورد تجاور الباب، فتحه، في الواجهة.. كان سرير الأمير منتصبا، تحف حوله ستائر من حرير قز الصيني الموشّى.

لم ترفع السمندل عينيها عن الأمير الساجي، منذ أن دخلت مخدعه، قالت:

- أغلق خلفنا الباب.

ران الصمت، وكأنه الدهر.. وقالت:

- أين الكتاب الذي كان يطالعه؟

أشار على طاولة بجوار نافذة:

- هناك.. ما زال مفتوحا.

زفرت:

- دعني الآن.. علي أن أستريح.

- إن احتجتِ شيئا، فوق النضد..

قاطعته:

- أعرف، الجرس، لقد دخلت الزاهي مرارا.. هنا وفي الأندلس، أغلق الباب خلفك.

ما كاد الجفري يأوي إلى فراشه، يمني نفسه بنوم عميق، وأن السمندل قد بلغ منها إرهاق السفر مداه – وإن لـم يبـد عليها الإرهاق – لن تستدعيه إلا غدا أو بعـد غـدٍ، حتـى اخترق أذنيه جلجلة الجرس، انتفض وقد خامرته الشكوك، إن أمرا قد استجد وهو الذي لم يمض على مغادرة مخدع الأمير سوى دقائق معدودات.. جرى تتطاير خلفه عباءتـه، فـتح الباب، كانت السمندل تنثر حول رأس الأمير أغصانا مورقة، فاح شذاها بأرجاء المخدع، خاطبته:

- ما كنت أخشاه قد وقع، كان هـو الكتـاب (أقـراص الزمرد).

خطا الجفري نحو الطاولة، حجزته بيدها وقالت:

- لا تقربه فينال منك سحره ويشدك لأغواره، تركتموه يفتحه وهو مهموم، إن لفتحه طقوسا حتى قبل فتحـه، والطامة الكبرى هو المضي خلال صفحاته دون وعي وإدراك، بدون دليل أو مرشد.. أميركم دخل المغارة، وهو ينشد الرجوع.

فتحت الشرفة، طالعتها تلال مراكش تمتـد تشـغل خـط الأفق، قالت:

- لا أعجب للأمير إن ألجأته المحن إلى مطالعته، جرفه الوهم، ربما يبحث بوهمه عما فقده بيقينه، وإن مـن اليقين ما يفوق الوهم فتنة وجمالا، وضاع منه أمهات الكتب وقمم العلوم والمعرفة وتبدد من بين ما ملك ما كانت بين ممالك الأرض جنة العصور علـى كرهـا وفرها، لا تستعيد ما ضاع إلا بكتب السحر، ما ضاع كأنه الأحلام، انتفض من حلوها وشفيف رؤاها... كلنا أيتام أحلامنا.

لزمت الصمت، ورفعت رأسها، كانت هي المرة الأولـى التي يراها سافرة، تتفشى برأسها دوائر القراع، وعلى بشرة وجهها البثور والقيح، واستدارت عنه قائلة:

- أرى أميرا.. سرقت منه كتبه، من في التاريخ يحاكيه ويماثله؟ رويدك سمندل هل صدأت مغاليق ذاكرتـك؟ لا.. لا أظن.

أخفت وجهها وبسطت وشاحها الأسود فوق رأسها، أخذت ترتجف بخوف متئد، تدير رأسها في الفراغ، صرخت:

- طريق صحراوي، في بلاد الشرق [1] وليس بمغـرب العرب، فتى يتوسل إلى سارقه قطـع عليـه طريـق سفره.. لا زال يتوسل أن دع لي (تعليقتـي) تحـوي كتبي.. فقط كتبي... يضحك اللص.. يقـول للفتـى كلمة.. كلمة.. عجبا.. وهل يحول اللصوص مسـار التاريخ؟ هل يميل الميزان لكلمة تصدر عن لص؟ لم يقل اللص افتح يا سمسـم.. ولكـن فتحـت لكلمتـه المغاليق، كانت الفتح المبـين والإشـراق والغيـث

(1) العراق.

الوفير.. لأنها كانت الكلمة.. الحكمة، إلا أنها جـرت على لسان لص.. فمن الفتى؟

أخرجت أصابعها من تحت وشاحها، وأشارت على ركن من المخدع، وجاء صوتها مجلجلا:

- التعليقة.. مخلاة الأمير.

أرعدت الآفاق فجأة، وكست عتمة أرجاء المخدع، وكـل أجنحة الزاهي.. أطاحت بالوشاح، وهبت واقفـة، تطاوعهـا قدماها في خطاها وكأنها لم تشك من علةٍ من قبل، توقفـت أمام مشجب، علاق عليه خُرج الأمير.. مدت يـدها بداخلـه، أخرجت ما حوى من كتب (السر المكتوم في أسرار النجوم) و(المضنون به على غير أهله) و(النفخ والتسوية)، تسارعت أنفاسها، اتسعت حدقتاها، تحسست الأغلفة، ثم همسـت فـي وهن:

- مولاي الحجة.. الإمام البحر.. من لم ير مثل نفسه.

انحنت على ركبتيها، تنبش في ملاءة السرير، هتفت مـن خلال بكائها:

- سمعا وطاعة للدخول على الملك.

انهمر المطر في الخارج مثل الشلال الهادر من أغـوار الكون، ترتطم حبيبات الثلج، تنقـر الشـرفات الزجاجيـة، ارتجف الجفري في مخبئه بين تلافيف السـتائر الحريريـة، قالت:

- أين أنت؟

قال:

- أنا هنا يا سيدتي.

ابتسمت:

- أبشر.. هو قد خطا أولى خطواته في طريق عودته.

هرول نحوها، جثا ليقبل قدميها، فجذبته واسـتقامت بـه، وقالت:

- امض الآن، وارجع غدا.

في غفوته وفواجع أحلامه، يدور فـي توهيمـات وعيـه صوت يزعق فيه (احفظ السر تحفظ حياتك) فحينمـا هـوى ليقبل قدميها.. كان يظهر تحت أطـراف أرديتهـا السـوداء حافران.

* * *

شقشق الصبح، انسابت جلجلة الجـرس، قـام الجفـري متكاسلا، طرح على كتفيه عباءته، فتح بـاب الغرفـة فـإذا بالسمندل في مواجهته وجها لوجه، بادرته قائلة:

- أليس غريبا أني لا أعرف اسمك؟

- الجفري.

- اشتد بي الجوع.

- اطلبي ما شئت أجهز لك طعام الملوك.

استدارت:

- زهدته منذ عهود مضت.

كانت هي المرة الأولى التي تطلب فيها طعامـا منـذ أن دخلت الزاهي، حمل الجفري من مطـبخ القصـر صـينية تراصت فوقها فطائر ساخنة، وعسـل النحـل يكسـو تـل الكسكسي، قسطل جبال الأندلس و(غاليه) مجروشا، وضـع الصينية أمامها وقال:

- منزل الهناء والصحة.

- اجلس.

- سبقتك يا سيدتي.

- قد يكون مسموما.

ابتسم ولم يجب، وراحت تأكل في شغف.

- أو تدري يا جفري أن ملوك الشرق يحتفظـون فـي أدراجهم بالجواهر والأحجار النفيسة تموج بـالأدراج حبات اللآلئ والخواتم وكل ما تهفو إليه النفوس، كلها غير ذات قيمة ولا أهمية لها عندهم.

دفعت يدها في صدرها، أخرجت زجاجة سوداء في حجم عقلة الإصبع وقالت:

- إنما في مثل تلك الزجاجة ما يفوق المـاس وذهـب الأرض كله.
- وماذا تحوي؟

فتحت الغطاء، نثرت بعض القطرات فـوق الكسكسـي، دفعت بملعقة فضية بعضها منه داخل فمها الأدرد:

- ماذا فيها؟
- فيها خلاصهم، إن جد الجد، السم.

ما يكاد يهب صارخا، حتى أعادته فوق كرسيه وقالت:

- إنما أمثل لك.. زجاجتي ليس فيها سوى الترنجبين.

دفعت عنها الصينية:

- أقدم معي.. حل الجد.

أشارت عليه أن يشعل المدفأة، زج بجوفها أعوادا جافـة وأضرم فيها النار، توجهت إلى السـرير، راحـت تمـزق صفحات كتاب النفخ والتسوية، تفصل الصفحات من كعـب محبسها، رفع الجفري معها رأس الأمير، افترشت وسـادته بالصفحات المنتزعة وتحت ظهره وقدميه، أمرته أن يحضر من فوق النضد صندوقها، أخرجت كأسا مكورة، نزعت من منتصف رأس الأمير عدة شعيرات، فخلفت في يافوخه دائرة صماء، طلبت حصاة متقدة، من زجاجة مسحوق الحصوات، سكبت قليلا مما تحويه فوق المنطقة الفارغة، وضعت عليها الحصاة المشتعلة، وألقمت الدائرة بفم كأسها مقلوبا، فتمـاوج بداخل الكأس خيط دخان يميل لونه إلى الزرقة.

بلغ منها الجهد غايته، يناولها الجفري ما تحتاجه، ويحـط عنها ما تفرغ منه، تتبعها وهي تتجه إلـى مائـدة المخـدع الرخامية، وفوق القرص الرخامي الذي اقتطع مـن جبـال (سييرا) الإسبانية، راح يقلدها – كما أمرته – يفرك حبـات منزوعة من أجربتها مثل قرون البازلاء يجمعان معـا مـا سحقاه، يدفعان المسحوق داخل زجاجات.. همست السمندل:

- هذا علاج الأيام الثلاثة القادمة، بعدها ينتفض واقفا.

قال:

- ويشفى؟

- ويشفى كما لم يمسسه مرض قط.

كانت تضرب له مواعيدها، فيوافيها، يسهران معا على مداواته بالحجامة، تمسح دفقات الدم، تنزع كأسها تشوب الحمرة سطحها الداخلي.

في اليوم الثالث، أمرت الجفري أن يرفع لها رأس الأمير، دفعت داخل الزجاجة عقلة سبابتها، خرجت متربة، دست إصبعها داخل خنابتي أنفه.. كانت الاستجابة في رجفة أهدابه، ابتسمت:

- تبدأ الحياة إذا ما تشنجت البلازما.. وقد تشنج الأمير بما يكفي.

في المساء أعلنت له البشارة، أن مولاه الليلة سوف يغادر سريره، يسامره في البهو، وتحت قبة سعد السعود.

أخذت الجفري رعدة خافتة.

قال حينما رآها تذرع الغرفة ذهابا وإيابا، شاردة الفكر:

- ماذا يقلقك يا سيدتي؟

أشارت عليه بالصمت أو الخرس، فاختار الصمت.

توقفت يعلو صوتها:

- جهزوا لمولاكم عشاءه، جهزوا في الشـرفة مقعـده، أوقدوا له المشاعل، ابسطوا أمامه البسط..

نظرت جانبا:

- مدوا له سجادة الصلاة، بالطيب امسحوا المسبحة. قم للصلاة عبد ا .. نفض عنك الوخم.

أسرعت وجذبت الجفري قائلة:

- اذهب وأدر ناظريك عن صفحات أقراص الزمـرد، اطو الغلاف، راقب إشارتي، إن أتتك اقذف بـه فـي نار المدفأة.

دنت من الأمير، كان عرقه قد تسرب إلى الأوراق، فـي كفها أفرغت زجاجة ذهبية، تماوجت سـحابة مـن نثـار، وضعت راحة كفها فوق فتحتي أنفـه، وأرسـلت إشـارتها للجفري، فألقى الكتاب في النار، التوت حـواف صـفحاته، يسمع للغلاف طقطقة.

تراجعت السمندل للوراء، أشـارت علـى الجفـري أن يحاذيهان شهق مولانا زيدان، انتفضت أوصاله، ارتفع بجذعه محدقا في السقف، شرعت الأبواب، احتشد الجند والحـرس

على الأعتاب، فتحت النوافذ العلوية التي تطل على داخل القبة، أدلى البرابرة والمور، والمغاربة، والعبيد رؤوسهم، ارتفعت الهمهمات، تلاحقت الأنفاس، هوى الأمير للأمام واستعط، علا الهتاف:

- يرحمكم ا مولانا زيدان.

اندفع الجمع للداخل يكبرون ويهللون، تفجرت فيه رعدة الحياة، فانسابت دموع السمندل وهي تغلق عينيها تتمتم:

- مولاي الحجة.. الإمام البحر.. من لم ير مثل نفسه.

لم تستطع مقاومة شوق لم يلبث أن استحال إلى دموع غلاظ تحدرت على خديها كأنها لؤلؤ العقد قد خانه النظم.

الفصل الثالث

المجادلة

بعد أن أخلى مخدعه، وانفض من حوله خاصـته، أشـار على السمندل أن تبقى، طلبت أن يؤجل مـا لديـه، إلـى أن يسترد كامل وعيه، أزاح عنه الغطاء واستقام بطوله الفارع، يمسد بكفه على خصلات شعره الفاحم، اجتاس كرسيا وقال:

- إذن، أنت السمندل.
- أنا ذي.
- سمعت منذ أزمان عنك.. حسبتك خرافة.
- كلاهما معا..

ران بينهما الصمت، قطعته قائلة:

- لكم انتظرتك،.. وبقدر الحاجة التي دفعت بهم إلى أن يقصدونني بقلعتي، كنت ومنذ عهـود أسـأل: متـى يمرض؟ متى يهوي في غيمته؟ عجل.. عجل.. قـد مللت سجني.. أخرجني من محبسي.

- وكأنك تملكين الثقة.
- الثقة؟ وهذه أيضا من عدتي! تعلم مولاي الإمـام أن في الشرق لعبة اسمها الشطرنج، الحركة الفائزة لمن أحسن الاختيار ولم يختر نقيضها، كـل حركـة تـم استبعادها ذهنيا، هي جزء من الحركة التي تنجز على الرقعة فعليا.. وأنا.. الكلمة المستبعدة.

أشاح بوجهه:

- كأني أسمع (التهافت).

انجلت بالقول:

- أنا ما كرهته أنت فيها ما أسقطته من المعرفة. أنا كل نفيك، وكل ما خلفته أنت (موجبي) ليس مسـتبعدا أن أكون بين الفكر أكثر رونقا.. واليوم لن أعـود إلـى محبسي.
- لست بسجانك.
- تركت أنت لهم هذه المهمة.. كل كتبك مولاي البحر، نُقلت إلى الشاطئ الآخر إلى الأندلس.. نقلوا ما نقلوه، واحتجزوا كل ما نفيته أنت، زجوا به بحرا وأعـادوه إلي من حيث أتـى، فأحسـنوا – فـي البضـاعة –

الاختيار، كانت لهم المنهل والمعين، بل نسبوا لأنفسهم ما جادت به قريحتك، قالوا ما قلته أنت وإن اختلفت الصيغ (خير للعالم أن ينتحر من أن يصدق أكذوبة أنها ديانة الفكر التي تلهب مشاعله أوهام العالم) [1] وبقي للعرب ما أسقطته، أنا ما ترسب من مصفاة الفكر، ترسبت في مغرب العرب، تراكم لديهم، أصبح صناعة العصور التالية.. هو الكلام والعملة واللغة، كنت جنينا وفكرة مسقطة، هائمة في لفائف العدم، كلما أوغلوا فيما ترددوا فيه كنت أنمو.. وأنمو.. فإذا أنا شوهاء لست بذاتي.. بل من صنيعهم.

كشفت عن ساقيها، فإذا هما حافران، تضرب الأرض بظلفيها.. صرخت:

- هذا هو ما أوغلوا فيه فكرهم.. وأصفادي معا.

أدار بصره عنها وقال:

- هذا يعني.. أن سقط العقل يجدي ولا نفع فيما ضيع من أجله أئمة الفكر وأصحاب المجالس والدروس

---

(1) برتراند راسل.

أعمارهم، لكأنـه آخـر الـدهر.. إذن كيـف يـأتي الإصلاح؟

- لا يهم في ذاته.. ما يهم طالبه وهأنذا.. الطالب.
- إن كنت – كما تدعين – مستبعدة، وأنت نفي الفكـر فهل تأتين إصلاحا؟ أشك في هذا.

ضحكت:

- أنت تحقق لي من حيث لا تدري أولى خطواتي نحـو يقيني ووجودي، ألم تقل (الشك أولى مراتب اليقـين) إني أدع لك الشك، فدع لي وحدي اليقين، قد كفى.

عم الصمت بينهما، إلى أن أنساب صوت السـمندل فـي طراوة:

- قلت مولاي البحر، إنه قد يعتقد الإنسان فـي النـوم أمورا، ويتخيل أحوالا ويعتقد لها ثباتا واستقرارا ولا شك في تلك الحالة فيها، ثم يستيقظ، فيعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاته ومعتقداته أصل وطائـل، وتسـاءلت أنت فبم تأمن، أن يكون جميع ما نعتقده فـي اليقظـة بالحس وبالعقل هو حق؟ من الممكن أن تطرأ علينـا حالة تكون نسبتها إلى يقظتنا كنسبة يقظتنا إلى منامنا.

عصرنا مولاي البحر، يستشكل على المرء إدراك ما الحقيقة وما الوهم. (إننا جميعا نحيا بأوهامنا، أقمنـا صروحها وارتضينا أن نبقى داخلها والويل كل الويل لأي عابر سبيل ينبهنا بأننا نجلس في الخلاء) (١).

- الصحراء تحيل الكذب إلى حقيقة منظورة.. ذلك هـو السراب.
- أنت مثلا، قد تُرى فيما لم تره أنت.

عبس:

- كيف؟
- قلت كذا وكذا في (المضنون به على غير أهله).
- ما المضنون به؟ وما أهله؟
- دسوه عليك.. وأنت من قلت – ولكن لا يتـذكرون – (أشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا فـي فضـل نفسـه وعلمه) ما أتعسني وقد جاءني الانتفاض للولوج إلـى النور، أنظرني تنظر ما آل إليه حال قومك وديـنهم، طرح عتمة السراديب تموج بالحشود تفـرغهم إلـى العدم، أحسبت أنك أغلقتها؟ إنها في كل الربوع فاغرة

[1] (**العصفورية**) غازي عبد الرحمن القصبي.

أفواهها تبتلع – بلا شبع – أبناءها. مـن السـهل أن نؤمن بكذبة سمعناها ألف مرة من أن نؤمن بحقيقة لم نسمع بها من قبل، وأمر الحقائق التي لم تُسمع بعـد (ليس هناك حيوان يحترم نفسه يقبل العيش مع إنسان لو كان له أن يختار).

ضحك ونظر إلى ساقيها:

- أرى عكس ذلك.
- أنا الدخيلة.. ومع الوقت.. أضحى أنا الحقيقة.

تثاءب، فأسرعت في القول:

- لقاؤنا هذا، قد كان وطواه النسيان، تشكلت الصـدف بينكما كلاكما في شرخ الشباب، هجرتما الصبا لهموم الرجال، أنت قطع اللصوص عليـك الطريـق فـي الشرق، سلبوا منك (تعليقتك) من الكتب وأنت عائـد من غربة إلى أهلك، وهو قطع عليه اللصوص طريق البحر في المغرب، لحقت أنت بأهلك وحال هـم دون بلوغه أهله، وأواخر ذريته سوف يتكففون الناس وهم من هم، من ملكوا ومِلكوا، رغم ضياع كتبـه فضـل حمل كتبك أنت في (مخلاته)، كلاكما يأكلـه الشـوق

للاطلاع والمعرفة، أنت اختليت في منـارة مسـجد (دمشق) وهو اختلى مع أوهامه وأحزانه تحت قبتـه، كلاكما وزع على الناس أملاكه.. أنت تصوفت وهـو تمسك بإسلامه، وكان عليه أشد من قبض كفه علـى الجمر، فطرد من أندلسه، هذا التطابق بينكمـا سـهل علي الأمر، كنت أقرب إلـى اسـتقبالك منـه إلـى استدعائك، لقاؤنا هذا قد كان، ومثلما قلت فـي بـدء الكلام سمعت عنك، فأنا قـد وردت علـى مخيلتـك وأنكرتها، فتمردت، ولتشهد أني أحسـنت الصـدف، كأنه القدر شكلها لي، بل هو الأعلم والمحدث، لقاؤنا هذا قد كان، وما كان من أمر (أنوشروان) حينما لام فيك الأمر، وقال بعد أن غادر عزلتك، (أهذا الذي في أول أمره، يستزدني فضل لقب من ألقابه) وذلك عندما قلت له – لتدفعه لمغادرة عزلتك (زمانـك محسـوب عليك، أنت عليه كالمستأجر، فتوفرك علي بذلك أولى من زيارتي).

ارتجف جفناه، أهدابه.. مال رأسه للخلف.. نكست رأسها وقالت في هدوء وسكينة:

- سلام عليك بحر العلوم مثلك لا يمل مـن مجلسـه، زماني محسوب علي، هذا ما كان وطواه النسيان.

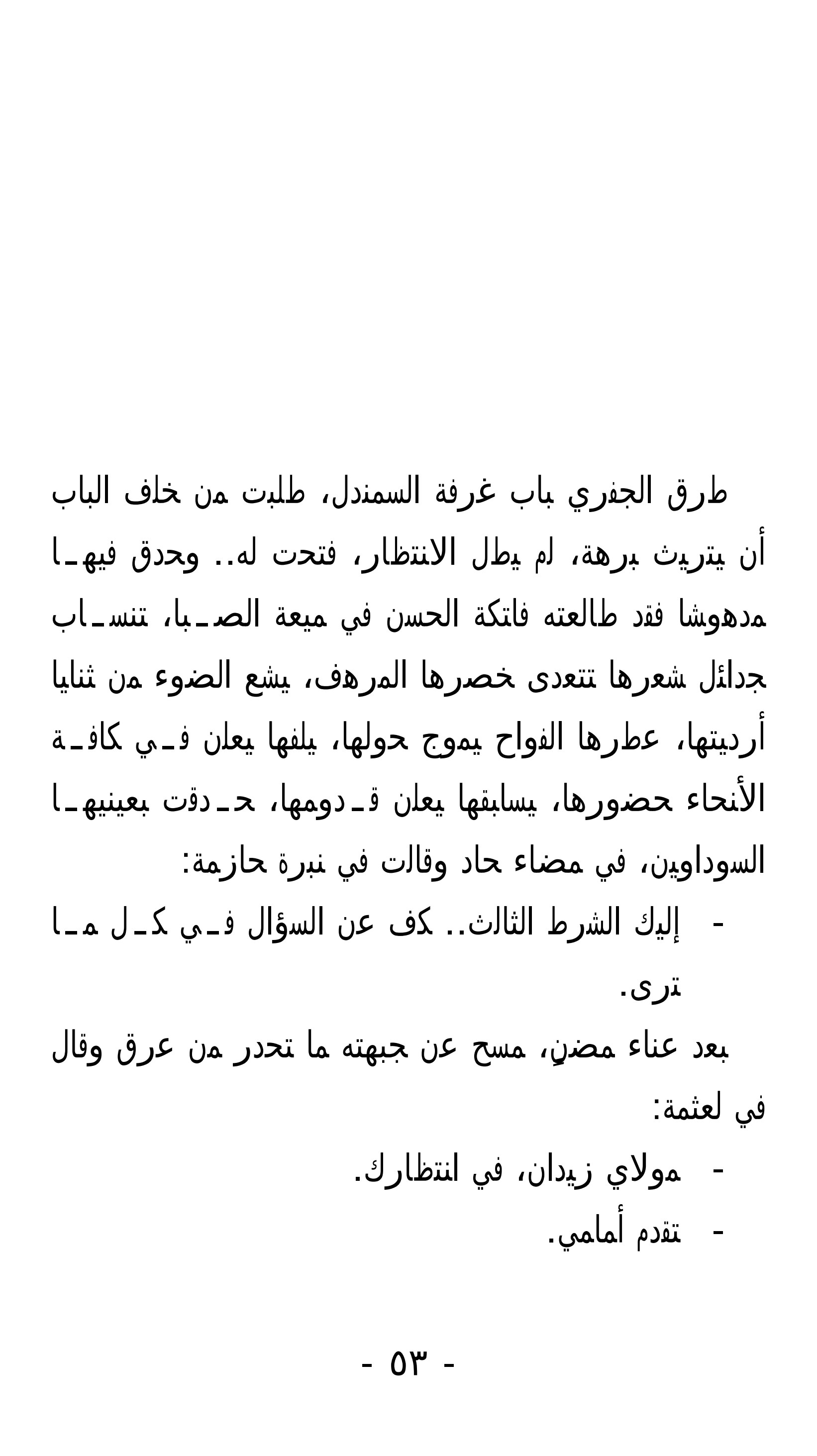
هبت واقفة.. صرخت في الجموع وهي تسرع في البهو:

- ضعوا مولاكم زيدان في سريره.. رشوا ماء الـورد على وجهه.. يقم لكم.

دخلت حجرتها محزونة ولكن في دعة، ملتاعة ولكن فـي هدوء، ولم تذق عيناها الغمض.

الفصل الرابع

قبة سعد السعود



طرق الجفري باب غرفة السمندل، طلبت من خلف الباب أن يتريث برهة، لم يطل الانتظار، فتحت له.. وحدق فيها مدهوشا فقد طالعته فاتكة الحسن في ميعة الصبا، تنساب جدائل شعرها تتعدى خصرها المرهف، يشع الضوء من ثنايا أرديتها، عطرها الفواح يموج حولها، يلفها يعلن في كافة الأنحاء حضورها، يسابقها يعلن قدومها، حدقت بعينيها السوداوين، في مضاء حاد وقالت في نبرة حازمة:

- إليك الشرط الثالث.. كف عن السؤال في كل ما ترى.

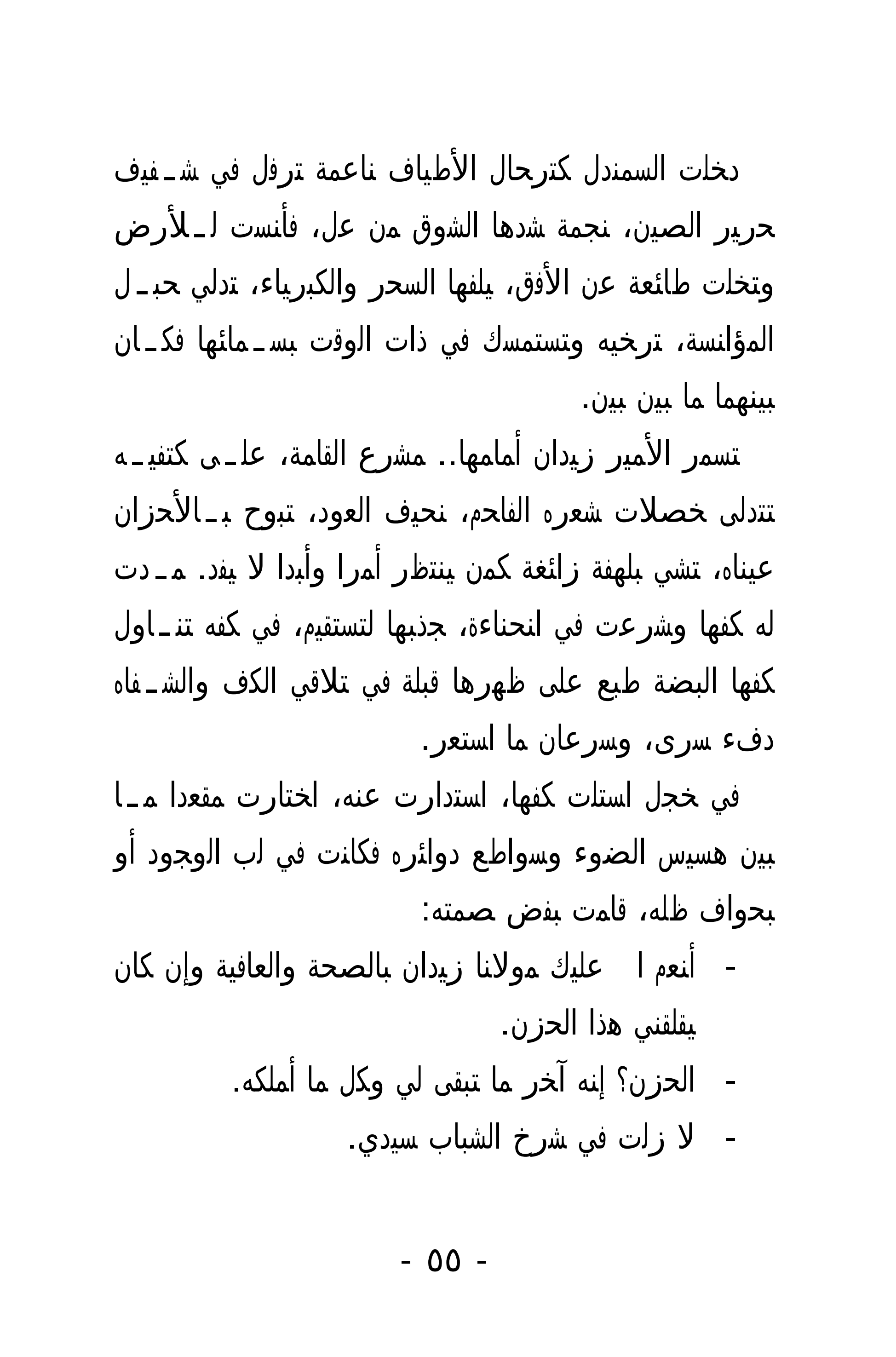
بعد عناء مضنٍ، مسح عن جبهته ما تحدر من عرق وقال في لعثمة:

- مولاي زيدان، في انتظارك.
- تقدم أمامي.

سار مهرولا، يدير رأسه يحدق فيها، كلما ضاقت بينهما المسافات، يفسح الخطى، وضاعف سرعته، وهي تتبعه في تثنٍ ودل، بحفيف أرديتها الشفيفة، تحيط رقبتها سلسلة ذهبية، تتدلى على مسافات متساوية أطر تطوق داخلها أقراصا من الزمرد، تسعى سعي النسيم يسبقها عرفُ المسك، ونشر القرنفل أيقظه برد السحر ومس الندى، لم يرخ الجفري بصره عنها، يتدلى فكه السفلي ويرتخي فوقه لسان الخبل، ركز عينيه على نصفها العلوي المشرق فتنة وجمالا، أهي السمندل أم ابنتها؟ وقلادتها أقراص الزمرد، ترتديها خصيصا له، تحذره وتؤكد عليه ما قالته (كف عن السؤال في كل ما ترى) وهو رأى فيها العجب، هل يكاشف سيده، فتح باب القاعة وعيناه معلقتان بها، وقال:

- مولاي زيدان.. السمندل.

عبرت الباب فانطلقت نبلة من شعاع الزمرد أومضت بعينيه فأغمضهما وهرول مسرعا بعد أن أغلق عليهما الباب، أهي مصادفة أم تعمدت السمندل الأمر؟ لتخرصه عن البوح لسيده عن كل ما يراه ورآه، هل يكن الوفاء للسمندل أم له؟



دخلت السمندل كترحال الأطياف ناعمة ترفل في شـفيف حرير الصين، نجمة شدها الشوق من عل، فأنست لـلأرض وتخلت طائعة عن الأفق، يلفها السحر والكبرياء، تدلي حبـل المؤانسة، ترخيه وتستمسك في ذات الوقت بسـمائها فكـان بينهما ما بين بين.

تسمر الأمير زيدان أمامها.. مشرع القامة، علـى كتفيـه تتدلى خصلات شعره الفاحم، نحيف العود، تبوح بـالأحزان عيناه، تشي بلهفة زائغة كمن ينتظر أمرا وأبدا لا يفد. مـدت له كفها وشرعت في انحناءة، جذبها لتستقيم، في كفه تنـاول كفها البضة طبع على ظهرها قبلة في تلاقي الكف والشـفاه دفء سرى، وسرعان ما استعر.

في خجل استلت كفها، استدارت عنه، اختارت مقعدا مـا بين هسيس الضوء وسواطع دوائره فكانت في لب الوجود أو بحواف ظله، قامت بفض صمته:

- أنعم ا عليك مولانا زيدان بالصحة والعافية وإن كان يقلقني هذا الحزن.
- الحزن؟ إنه آخر ما تبقى لي وكل ما أملكه.
- لا زلت في شرخ الشباب سيدي.

- ولقيت فيه ما لقيت.. فماذا عن شيخوختي؟

- ليس في ضياع الأملاك والأهل.. ضياع العالم.

هب، وأسرع نحو الشرفة، يتلاعب الريح بجلبابه، يحـدق في أفق الشمال، جاورته، وقال:

- كأنها لم تكن تلك القرون، كأنها أضغاث أحلام، منـذ دب الشقاق بين (مضر) و(حمير) بالأندلس، وتصدى (الغافقي) لإخماد الفتن، إلـى أن سـلم الملـك أبـي عبد ا ، آخر ملوك الإسلام، مفاتيح غرناطة إلى ملك قشتالة قائلا له: (أصبحت أيها الملـك سـيد تراثنـا، وديارنا، وأشخاصنا، هكذا قضى ا ، فكن في ظفرك رحيما عادلا) والأسئلة تتزاحم على العقـل، كيـف؟ ولماذا؟ ومتى؟

- مضى ما مضى مولاي زيـدان، الأسـئلة تـرى.. والأجوبة عمياء.

- كانت لنا القصور.. قصر المبارك والزاهي والحـائر والزاهر، وما شيده الموحدون، كانت لنا الأرض من السند إلى الأطلسي.. عبرنا غير مرة (البرنية).

- تتحدث مولاي عن الأرض والقصور، أما كان أجدى أن تقول سادت دعوة الإسلام شرق العالم وغربه، كما لو كان الأمر هو التملك فقط. الحياة قصيرة مـولاي زيدان، والهرب طويل، ستجده أمامك، هـو يرافقـك ويداخلك، فبدل أن تهرب منه، عش به ومعه.. نحـن جميعا نحمل في أعماقنا وخرائبنا، هون عليك.. كأنك (الأمير الباكي).

- قد صدقت، جدتي هي الأميرة (عائشة الحرة) التـي هتفت في الأمير: "أجل، فلتبك كالنساء ملكا لم تستطع الدفاع عنه كالرجال".

أخفى وجهه بين كفيه، مدت السمندل أصـابعها، تفـرق شعره، تمسد على جانبي مفرقه، وقالت في صوت خافت:

- ألهذا شيدت قصرك تجاه الشمال، لتنظر دوما ربـوع الأندلس؟ ألم تعلم أن الجهات محض افتـراض، أدر وجهك عن وهمك، وجه ا يعم كل الكـون.. فـلا تحزن ولا تبتئس.

كان يقف وسيما قسيما، مستقيم القد، معتدل القامة، اجتاس كرسيا في صمت، رفع إليها وجهه، مسحت بناظريها جبهته،

وحاجبيه العابسين، أهدابه المنداة بدموعه، وفمه الحازم، فتح عينيه في لون زيتون الأندلس، يعكس بياض عينيـه ضـوء النجوم المرتعدة.. رجف وجيف قلبها، فاستدارت عنه قائلة:

- مولاي زيدان انظر جانبك.

نظر محدقا في إصيص زرع يجاوره، جمع أنواعا شـتى من الزهور، اتسعت عيناها وقالت في حنو:

- قد يتسع الإصيص لزهرتين مختلفتين، لكـن العـالم يضيق بقاتل وقتيل، بظالم ومظلوم، فلا تكن واحـدا منهما.

دخلت القاعة يتبعها الأمير، التقط الجرس، هزه في عنف، أقبل الجفري حاملا صينية فوقها الكؤوس، أشـار أن يبـدأ بالسمندل، قال الأمير:

- رمان الأندلس.

انحنى الجفري، سقط بصره على قدميها، فسرت رعشـة فيه، أسقطت الكأس على ثوبها، انسـاب عصـير الرمـان الأحمر القاني على رداء السـمندل الأبـيض، حـدقت فـي الحمرة، فضحكت قائلة:

- رمان الأندلس.. أم دمه؟

قامت، اتجهت إلى جناحها، يتبعها معتذرا الجفري الـذي استوقفها في بهو الأقواس وقال:

- سيدتي السمندل.
- ماذا بك؟
- لن تجدي أحرص مني على كتم الأسرار.

رفعت طرف ثوبها، فظهرت ساقاها المشعرتان، أسـدلت عليهما ثوبها وهمست وهي تميل نحوه:

- إنهما أصدق ما بي.

دخلت وأغلقت الباب.

* * *

لم ينم الأمير زيدان، اخترم سهم السهد ستر نومه، يقطـع مجيئا وذهابا شرفته المستديرة، يحدق في أفق الشمال، مـن تحته تضوي النوافذ، يسعل الليل وميضا هنا وهناك، تسـهر أسر مراكش، يغفو صغارها.. لماذا هو وحيد؟ لا زوجة لـه ولا أولاد (أنت وحيد ودونك ينعم بدفء الزوجـة والأولاد.. إلى متى؟ فضل أهلك البقاء هناك وهم على مضـض، أنـت فقط من أبيت، أجبرت على الإبحار للجنوب، تجتر في كـل

ليلة أحزانك، تزيل كل ليلة خثرة الدم عن جراحك فيؤلمـك نزفها.. ينز دمها المقروت.

أندلس، يا عنقود العنب العالي، أنا في أمس الحاجة لمـن يؤكد وهمي بحموضة العنب. أندلس، يا كتابا تأبى صـفحاته الطي).

يحاول إمساك دموعه كي لا تفر في غفلة منه. أدار رأسه ينظر داخل القاعة، ترف حوله بقايا عطر السمندل، قيل له:

- كانت هي المعالجة، أعادتك مـن غياهـب العتمـة، سهرت عليك الليالي الطوال.

يخال إليه أنها تخفي سرا، مثلها لا تلم بخبرات العجـائز، فقد سمع عنها من جداته، هي أبعد ما تكون عـن التطبيـب والمداواة.. غادر الشرفة، ألقى بجسده فوق أريكة، وطـائر الكرى يحوم حوله.. إلى أن حط النوم على جفنيه.

في انسياب ناعم، تسحبت خيوط شمس الغـروب فـوق قسمات وجهه، رجفت أهدابه وفتح جفنيـه فـإذا بالسـمندل والجفري فوق رأسه، يحدقان فيه في لهفة.

قال الجفري:

- استيقظ مولانا زيدان.

لم يسمع كلامه إلا بإذن معرضة، ولم يستقبلهما إلا بوجه مشيح، وقالت السمندل:

- خلناك رحت في غيبوبة أخرى.

استقام لهما:

- ما أفظعه حلما، أسير في صحراء قاحلة، في اتجـاه الأندلس، لم يكن هناك بحر، فقط الفيافي، كلما دنوت تتباعد الأرض عن ناظري.. رغم أنها على مرمـى البصر.

استدار نحو السمندل:

- هل تعرفين في تفسير الأحلام.. كتاب (ابن سـيرين) فوق سفني.

شاب وجهه ألم لاذع وحزن ممض.

استلقى، أدار وجهه، وأغمض عينيه.

جلست السمندل والجفري تحت قبة سعد السعود، أخـذت تحدق فيها، تؤكد لنفسها أن سقف القاعة كان مستويا مسطحا، وبحر الآهات وأوار الأحزان تمدد إلى فوق وتقبب!

الفصل الخامس

تنهيدة (المُّور) [1] الأخيرة

(1) اسم رواية لسلمان رشدي (Moor's Last Sigh).

- افعلي شيئا من أجل مولانا يا سيدتي، أمهلنا مـن آل إليه ملك مراكش بضعة أيام لمغادرة القصر.

- ومن تولى الحكم.. أهو من العائلة المالكة؟

- لا يشترط، عندنا أن كل من يصل لسدة الحكم يـولى علينا ملكا، هل شُفي حقا مولانا يا سيدتي؟ أم عاودته غيبوبته الأولى؟

- شُفي.. ليهوى في الأخطر منها.. دعه ينام.

افترش الليل عباءة العتمة على الآفاق، ليل ضرير، يبتلع من يدخله ويخبئه في جوفه، ما إن غـادر الجفـري، حتـى راحت تداعب أنف الأمير، فتح عينيه، انتفض مـن نومـه يحدق فيها، كانت ترتدي بنطالا أزرق اللون باهتا مجربا في

بعض أجزائه، وسترة مخططة، دست قدميها داخـل حـذاء يرتفع حتى ركبتيها. قال:

- خلتك قشتالية.
- هو زي الزمن الآتي، لا عليك، مولاي زيدان أيهمـا أقوى في ظنك، مالك الشيء أم فاقده؟
- مالك الشيء.
- أنت أقوى منه.
- أنا؟ كيف؟
- الأقوى هو الذي لا يملك شيئا ليخسره، وأنت خسرت الملك والأهل وأسر عنك كل ما ملكت.
- وبعد؟
- هذا ما ينتظر منك الإجابة عليه، كما ينتظر الجـالس على كرسي الحكم أن تغـادر القصـر، المعارضـة نصبوه وطلبوا رحيلك أنت.

صمت وتنهد، قالت:

- (تنهيدة المور الأخيرة) هكذا سيسطر عنك، أتختم كل هذه المحن والدم المراق في بلاط الشهداء، وسـقوط قرطبة وكافة الممالك من طليطلة إلى سقوط غرناطة،

وبعد تاريخ الطوائف والموحدين، والمرابطين، وبعـد عبد الرحمن الداخل.. تكفيك تنهيدة، ولا تسأل مـاذا أفعل غدا؟ أتأسرك إلى هذا الحد الأنـدلس؟ مـولاي هناك صواب وهناك خطأ، ولا مناص من فعل هذا أو ذاك، أحدهما يحييك والآخر تعيش به ولكن شبه ميت، هل ترغب في الأندلس؟

هتف:

- نعم.

أزاحت الستائر الوردية، كان ليلا شاحبا، ينـزو بنجـوم باهتة، لا تروي ظمأ هذه الظلمة الغامقة، فأسـدلت السـتائر ثانية، واجهته قائلة:

- إذن عد، ولم الأندلس؟ لماذا لا يكون العالم.. أو حتى الكون كله، ليست المشكلة في العودة، لكن ماذا أنـت فاعل؟ أم نحن – في اعتقادك – كالأصداف المقذوفة على الشاطئ، نؤدي حركة واحدة على مدار حياتنـا الطويلة.. من الصعب يا مولاي أن تهرب واقفا.. لو فُتحت ألف أندلس، وسقطت ألف مثلها.. سوف تشقون ثانية المتنزهات، وتجرون الماء في البيوت لزراعـة

النارنج والليم والليمون والزنبوع، تقيمون من جديـد قصر الكامل، والزاهر، والمنيف، والمجدد، والحائر، والمعشوق، والمبارك، والرشيق، والسرور، والزاهي، والتاج، والبديع، وكأنها مملكة القصـور. والغلمـان والحسان والغواني والإمـاء والمنشـدات والخوالـع والشعراء والوشاحين والزجـالين.. تعيـدون ليـالي الأندلس في اللهو الطـرب، مـن القيـان والمغنـين والمضحكين والبهاليل و...

وقف الأمير يجهر بصوته:

- تمهلي.. أقصد العودة لديار أجدادي وأهلي.. ثم هـل الأندلس بنايات، كان فيها أربـاب العلـم والمعرفـة وحملة مشاعل الفكر إلى كل الشعوب المجاورة.
- ناقلوا حضارة.. هم أحسنوا الصنع بها، شيدوا علوما لا قصورا، نظريات لا منتديات الشـدو والطـرب، أفكارا لا مصاريع أبواب من ذهب، آدابا وليس خليع الوشاحين، اعلم إن لم تعلم، سيكون لهم السبق فيمـا سيرد من رقي الحضارات في الأزمنة القادمة.

جاورته فوق الأريكة، تخفي مشاعرها بسل خيطٍ من كمه، تبرمه بإبهامها وسبابتها، قالت:

- الأندلس جنة ا والغواية معا، كان الخـروج منهـا نتيجة متوقعة، لكم يشقيكم.. حلم العـودة للفـردوس المفقود.

أغمض عينيه:

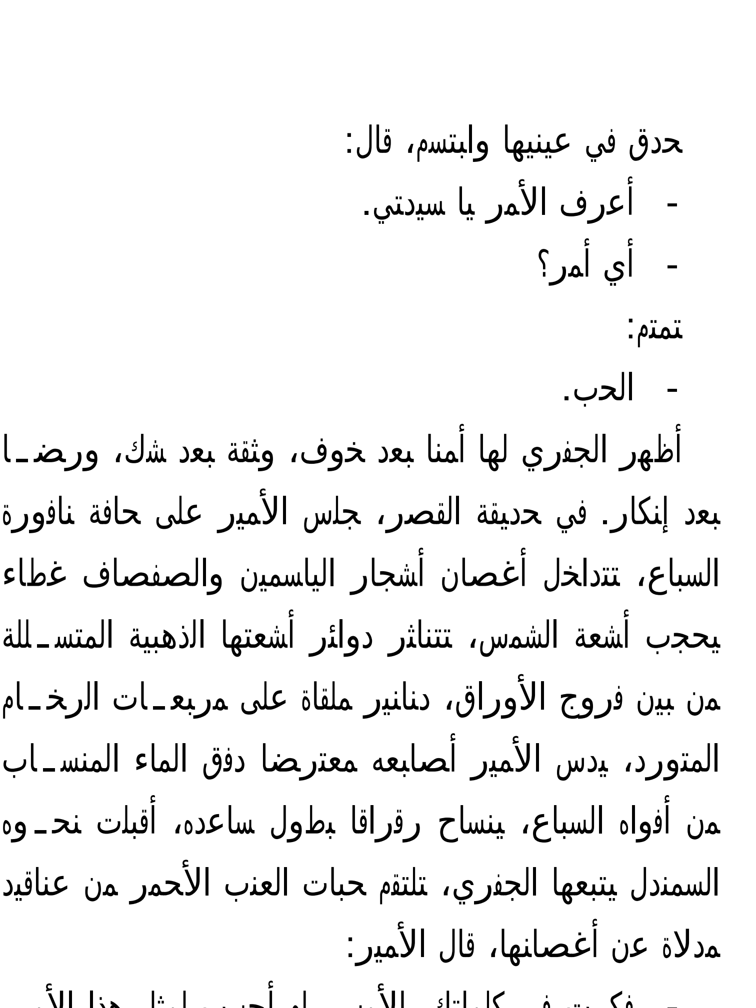
- رب معصية أورثت ذلا وانكسارا، خير مـن طاعـة أورثت عزة واستكبارا.. هكـذا قـال ابـن عطـاء السكندري.

- إن أردت العودة.. في مقدوري ذلك.. من فجر غدٍ.

أشارت على الجفري أن يتبعها، بعـد أن اسـتأذنت مـن الأمير، فوق مقعد غرفتها هوت، تمد للجفري ساقا قائلة:

- اجذب عن ساقي الحذاء.

انحنى يجذبه من ساقها، ارتطم – مع الجذب – للخلـف.. خرج الحذاء في يده، فردت ساقها تضـرب حافرهـا فـي الأرض، مدت ساقها الأخرى.. جذب الحذاء، خرجت ساقها، كانت الساق بيضاء تشوبها حمرة، خالية من ظلفها، تفـرك أصابع قدمها الخمس، ساق بضة.. لدنة الملمس.



حدق في عينيها وابتسم، قال:

- أعرف الأمر يا سيدتي.
- أي أمر؟

تمتم:

- الحب.

أظهر الجفري لها أمنا بعد خوف، وثقة بعد شك، ورضـا بعد إنكار. في حديقة القصر، جلس الأمير على حافة نافورة السباع، تتداخل أغصان أشجار الياسمين والصفصاف غطاء يحجب أشعة الشمس، تتناثر دوائر أشعتها الذهبية المتسـللة من بين فروج الأوراق، دنانير ملقاة على مربعـات الرخـام المتورد، يدس الأمير أصابعه معترضا دفق الماء المنسـاب من أفواه السباع، ينساح رقراقا بطول ساعده، أقبلت نحـوه السمندل يتبعها الجفري، تلتقم حبات العنب الأحمر من عناقيد مدلاة عن أغصانها، قال الأمير:

- فكرت في كلماتك بالأمس، لم أحسب لمثل هذا الأمر، أن أترك القصر، لكن إلى أين أرحل؟
- نرحل معا.
- إلى أين؟

- دع الأمر لي.
- متى؟
- الليلة، ماذا كنت تطالع بأقراص الزمرد؟

حدج ورقة شجر طافية:

- كان ضمن كتبي، حرصت أن أصطحبها معي داخل مخلاتي، كنت على وشك الرحيل، لا أعرف إلى أين، وينازعني الحنين في البقاء بالقرب من أهلي، على الجانب الآخر، استعنت بكتاب السحر أطالعه، علمت أن مراكب قشتالة أسرت سفني بما حوت، ولم أدر بعدها بشيء.
- لا أسألك عن هذا.. أسألك عما جاء بالصفحة الأولى؟
- ما أذكره أن الكتاب لا يطبع، فإن طبع يفقد خواصه السحرية، وإنما ينسخ بيد قارئه، بريشة وورق وحبر من صنع يده، وأن يكون النسخ وسط أفقر الناس وأذلهم.. ثم مستطيل لا أعرف ما سطر بداخله.
- أقول لك ما سطر فيه:

(قال العقل: أنا لاحق بالشام؛ فقالت الفتنة وأنا معك.

وقال الشقاء: أنا لاحق بالبادية؛ فقالت الصحة وأنا معك.

وقال الخصب: أنا لاحق بمصر؛ فقال الذل وأنا معـك)[1]

- أمرك غريب.. هذا ما سطر حقا.. من أنت؟
- أنا السمندل.. إلى أين تمضي؟
- إلى مصر.
- وأنا معك.

اقتربا من سلالم القصر، فدفعها الأمير داخل دغلة كثيفة، وهوى يلتقم شفتيها النديتين داخل فمـه، يمـتص رضـابها، وتمتص في غيمة غلمتها رحيق فمه، تشـتق علـى الفـور ظلفها، انتزعت منه جسدها، هرولت، تصم أذنيها عن صوته وهو يناديها.. ويعدو خلفها، أغلقت الباب، انحنت تتحسـس القدم، تعض بشفاه الندم صارخة:

- ليس الآن.. ابق لي.. ما أشد حاجتي لحافري.

طرق الجفري باب غرفتها، فتحت السمندل لـه، أرخـى بصره وقال وهو بعتبة غرفتها:

- سمعت سيدتي حديثك عن الأندلس، فتـذكرت قصـة أندلسية تقول: دخل أحـد جواسـيس قشـتالة إلـى غرناطة، فشاهد صبيا يبكي، ولما سأله عـن سـبب

(1) د. جمال حمدان (شخصية مصر).

بكائه قال الصبي: أسدد سهمي إلـى ثمـرة دانيـة فيخطئ الثمرةَ سهمي، ولما نقل الجاسوس الأمر إلى ملك قشتالة قال لا تدخلوا غرناطة الآن. وبعد سنوات دخل هذا الجاسوس الروضة فشاهد الصبي وقد شـب ونما، ولما وجده يبكي قال: لم البكاء؟ قـال الشـاب: هجرتني محبوبتي. ما إن سمع ملك قشتالة الأمر حتى دفع الجاسوس عنه وصرخ: الآن.. الآن فقط ادخـل وجنودك غرناطة.

طأطأ رأسه ومضى عنها.. وأغلقت السمندل بابها.

آوت إلى فراشها.. تحدق في عتمـة الفـراغ.. تتلقفهـا الأفكار.. ا لم يخلق الغمام كالغلالة الرقيقة.. بـل غيومـا متكتلات تصطرع وفي اصطدامها الرعد والبرق والصخب، يتقاطر مع الدوي.. مـاء الحيـاة تكمـل الأرض مسـيرة الاخضرار، وتواصل مع الدهر تاريخها.

الفصل السادس

كوبري التاريخ[1]

(1) يربط غرب الأسكندرية بوسطها وشرقها – وهو أقدم كباريها.

كانت الأمور مرتبة، أن يصطحب الجفري الأميـر، فـي حين تلحق السمندل بهما، استدار الجفـري خلـف القصـر، طالعته مهرة في بياض وألق، تتهدل غـرة بيضـاء فـوق جبهتها، مرفوعة الرأس، تحمحم وتدور حول نفسـها، قـال الأمير:

- أين السمندل؟

عاجله الجفري:

- سوف تلحق بنا، عليك أن تعتلي المهرة.

في قفزة سريعة كان الأمير يعتليهـا، أخـذت تضـرب الأرض بأقدامها، فأثارت طيات الغبار. صرخ الجفري:

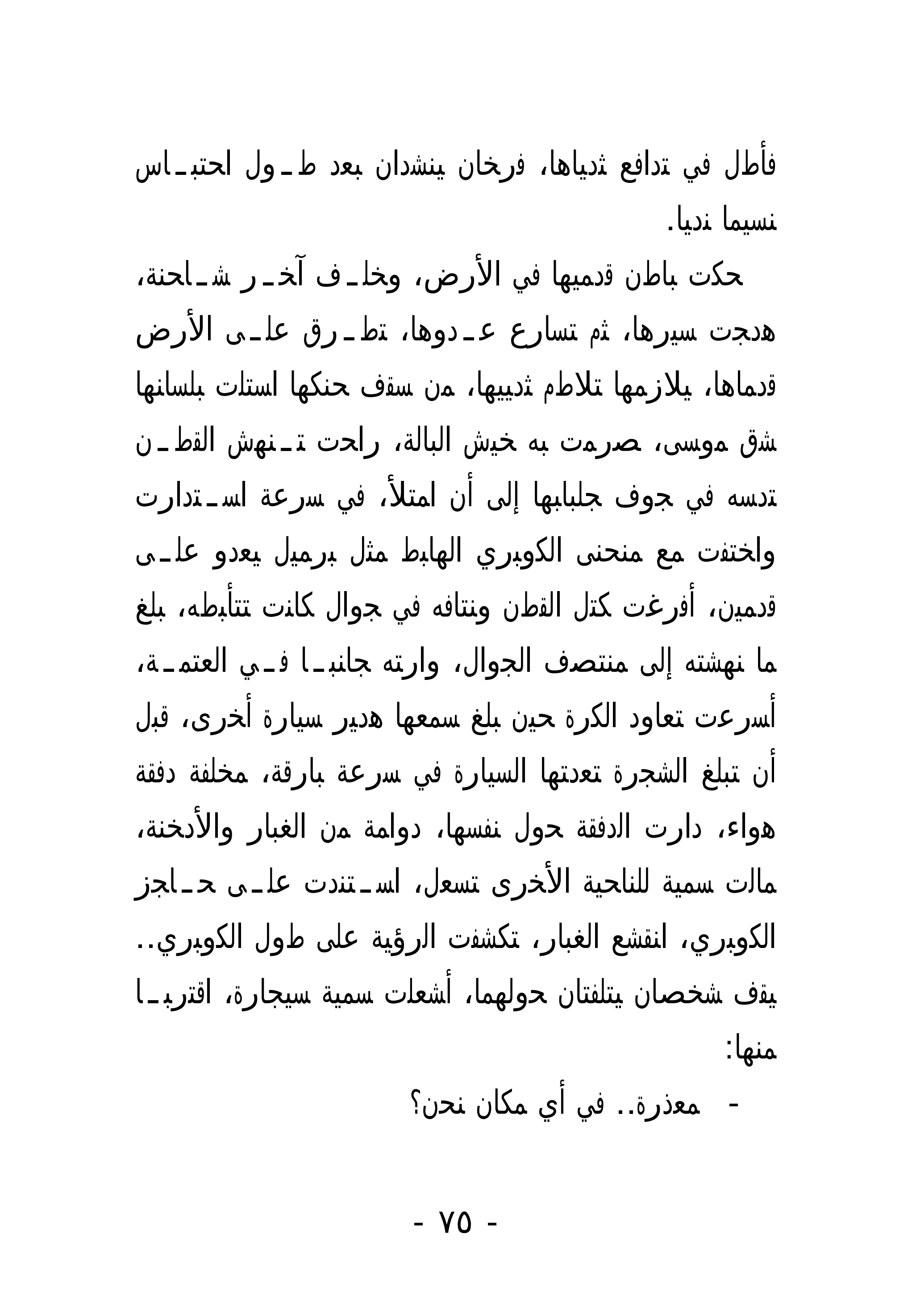
- سيدتي السمندل لا تتركيني.

شدد قبضته على ذيلها، تماوج الغبار في لفائف، في غمرة العتمة، خبا الصهيل، وتبدد الغبار، تكشـف عـن خـواء.. وزوبعة كأنها لم تكن.

* * *

كوبري التاريخ، على صفحته الأسفلتية تضوي انعكاسات أضواء مصابيح أعمدة الإنارة المنتصبة على جانبيه، تمتـد تحته نهاية ترعة (المحمودية) قبل أن تصـب فـي البحـر مياهها. ترعة كسول، لا تود مبارحة اليابسة، حبسـت عـن البحر المياه فاستكن آسنا بجوار نفق المصب، بباب جمـرك الصادر (صادرات مصـر لـدول العـالم، ابـرز بطاقتـك ورخصتك).

نسائم ما قبل بزوغ فجر صيفي، تهب في دعـة، يسـمع حفيف مداعبتها للشجيرات المتناثرة على جانبي الترعة، عند كتف الكوبري الشرقي، وفي العتمة خلف شـجرة الجميـز، وقفت (سمية الدكر) تلوك في فمها لبانـة، بـين أصـابعها سيجارة ترمدت. أرهفت السمع لهدير الشاحنات يدنو، ألقـت سيجارتها وزفرت لبانتها، سحبت حبلا من حـول رقبتهـا، اختصرت به فوق حوضها، حررت أزرار صدر جلبابهـا،



فأطل في تدافع ثدياها، فرخان ينشدان بعد طـول احتبـاس نسيما نديا.

حكت باطن قدميها في الأرض، وخلـف آخـر شـاحنة، هدجت سيرها، ثم تسارع عـدوها، تطـرق علـى الأرض قدماها، يلازمها تلاطم ثدييها، من سقف حنكها استلت بلسانها شق موسى، صرمت به خيش البالة، راحت تـنهش القطـن تدسه في جوف جلبابها إلى أن امتلأ، في سرعة اسـتدارت واختفت مع منحنى الكوبري الهابط مثل برميل يعدو علـى قدمين، أفرغت كتل القطن ونتافه في جوال كانت تتأبطه، بلغ ما نهشته إلى منتصف الجوال، وارته جانبـا فـي العتمـة، أسرعت تعاود الكرة حين بلغ سمعها هدير سيارة أخرى، قبل أن تبلغ الشجرة تعدتها السيارة في سرعة بارقة، مخلفة دفقة هواء، دارت الدفقة حول نفسها، دوامة من الغبار والأدخنة، مالت سمية للناحية الأخرى تسعل، اسـتندت علـى حـاجز الكوبري، انقشع الغبار، تكشفت الرؤية على طول الكوبري.. يقف شخصان يتلفتان حولهما، أشعلت سمية سيجارة، اقتربـا منها:

- معذرة.. في أي مكان نحن؟

تطلعت فيهما، أيقنت أنهما غريبان عن المكان، فقالت:

- (يا نازل كوبري القباري

خداك معاك كاتر

الحال ما يسلمشي

حتقابل سمية الدكر) اسم ا على مقامكم، إنتم فـوق كوبري التاريخ، في القبارى.

- كوبري التاريخ؟

- وأنا.. سمية الدكر.. بالسكين والمستحد ما يمسكهمش أي حد.

أشار الجفري خلفها، وقال:

- مولانا زيدان.. السمندل قادمة.

في سرعة البرق أشهرت سمية مدية، واستدارت، أقبلـت السمندل تعرج قليلا في خطواتها، بادرتها سمية قائلة:

- أهلا، تعرفوا بعض، ومنين بالصلى ع الزين؟

قال الجفري:

- هذا مولانا زيدان؟

- مولانا؟ إمام جامع (وإيش لم الشامي ع المغربي)؟

هتفوا:

- كلنا من المغرب.
- يبقى أنا بقى الشامية فيكم، هه وسكتكم فين؟

قال الجفري:

- و... القبارى في أية مدينة؟

ضحكت سمية:

- لأ.. دا نظام شم ولا بلبعة موش عارفين أنتم فين؟

قالوا في نفس واحد:

- لا.
- شاربين إيه ع الصبح ولا بايته معـاكم، أنـتم فـي إسكندرية.

قالت السمندل:

- الحقيقة نحن نبحث عن سكن.

التصقت بها:

- عندي حبيبتي السكن، وراكم، بعد ما هدوا (الكرانتينا) سكنا هنا.. اتفضلوا.. بس بقول إيه.. الإيجار نار هنا علشان الحتة يعني بحري، معاكم فلوس؟

قالت السمندل:

- معنا دولارات.

تماسكت سمية لميل مفاجئ لحق بقدميها، دفعت سيجارتها نحوها قائلة:

- صباح الفل والياسمين.

ردتها عنها شاكرة.

اصطحبت سمية الجفري معها، وخلـف كتـف حجـري متهدم أخرجت جوالها، وضعته على ظهر الجفري، خرجت تتقدمه، وغابا معا وراء سور يحيط بعدة أكشاك من الصفيح الخشب.

شخص الأمير في الميناء قبالته.. تضوى المصابيح مـن أعمدة الساحة وأدوار السفن، قال:

- أعرف بالضبط ماذا يجري لنا؟ لماذا نحن هنا؟ كيف انتقلنا من المغرب إلى فوق كوبري التاريخ؟

بسطت أصابعها على فمه:

- مولاي الأمير كف عن التساؤل.

انقدحت عيناه:

- وأنت من أنت؟ ما سر..

نكس رأسه:

- ليلة أمس، تلصصت عليك وأنت نائمة، استرق النظر من ثقب الباب، على كل جزء فيك، شـعرك الـذي يموج على وسادتك كلما تقلبت، ذراعيك المدملجتين، حمرة أذنيك وخديك، استدارة ردفيك.. إلى أن سـقط نظري على ساقيك، فكانت الطعنة النجلاء.

ارتمت باكية في صدره، أسند على مفرق شـعرها ذقنـه وقال:

- إن كان مرضا، فأنت أدرى بالدواء، لم أشف إلا بـك وإن كانت لعنة، فما أهونها، هي أخـف مـن لعنـة الأندلس.

كفكفت دموعها:

- سل الجفري كيف قابلته في القلعة، عجـوزا.. كتلـة صلصال من مخلفات عصر التكوين وأزمنة التوحش، أقسمت في عالم الذر والعهد أن لا آتي إلا بالحـب.. أنا ما لا يتحقق إلا بالحب.. بالحب أتواجـد تباعـا.. بيى لي فقط..

ثم لزمت الصمت.

أعادها في حضنه:

- أعرف.. ليتنا أحب بعضنا البعض، ما كانت تسـقط الأندلس.

هتفت سمية الدكر:

- ها .. ها .. دا فيلم عربي ع الكوبري.

أسرع الجفري نحو مولاه يواسيه، ضربت سـمية كفيهـا وقالت:

- عليه النعمة.. أنتم التلاتة كده فيكم حاجة.

في خفاء فتحت السمندل كفها، ثم أطبقت علـى الهـواء راحتها، فإذا بها قابضة على رزمة من الدولارات من فئـة المائة، نزعت عدة أوراق، وقدمتها لسمية، ازدردت ريقهـا ينطفر الدمع من عينيها وهتفت:

- يا أهلا وسهلا.. زارنا النبي العدنان.. نوركم هل يـا أهل الكرم والعز والإحسان.

مال الجفري على الأمير قائلا:

- من المستحيل أن نعيش هنا وسـط الرعـاع، أبعـد القصور والأجنحة والقباب، نأوي تحت أسقف الصفيح المطروق؟

- هذه هي الشروط، لتسطر لنا أقراص الزمرد، بعـدها نعود من حيث أتينا.

عبرت سمية بهم السور، تطلق من فمها الزغاريد، تصفق بكفيها وتنشد:

- يا نسوان الكارنتينا

أهي الدنيا جت في أدينا

نقطف منها عنبة وتينة

عليها نعدي ولا تعدينا

وإذا بالساحة الداخلية، تزدحم بالنسوة يصـفقن، ينشـدن خلفها، أفرغت الأكشاك الخشبية سكانها، يهـرول الأطفـال نحوهم، الصبية والشباب يطلقون مـن أفـواههم صـفيرا، صرخت فيهم وفيهن:

- بس.. كل مرة تروح لحالها.

تقدمتهم قائلة:

- أهلا أهلا.. اتفضلوا.

في خطى متعثرة، دخل ثلاثتهم مأوى كـوبري التـاريخ بالقباري.. وعلى وجوههم الامتعاض.

* * *

الكارنتينا، كلمة باللغة الإيطالية (كارانتاجور) الأربعـون يوما، هي مدة العزل في الحجر الصحي، لكل مـن يـدخل الإسكندرية، كانت في الأصـل خيامـا تحـت اسـم (إدارة الأمراض الوافدة على مصر) ثم شيدت بناية دائرية، أطباقـا فوق أطباق، في كل طابق يعزل مرضى أمـراض بعينهـا، طابق الطاعون، طابق الكوليرا، طابق الحمـى الصـفراء.. وهكذا، غير المحرقة في جانب آخر يجاور المبنى. مع التقدم في الطب والتحصن ضد الأمراض، انتفـى الغـرض مـن بنائها، فشغلت العنابر والغرف شـراذم النـاس وأحطهـم، أصبحت بؤرة الإجرام، ومأوى المشبوهين وذوي السـوابق، وهي أمراض لم تدرج أصلا بلائحة الإنشاء، أو أدرجت فيما بعد فضمتهم في مبنى واحد، يسمع دائما بين جنباتها صريخ النسوة، وعراك الشباب، وسب الأديان بكل المال والنحل.

شيدت محافظة الإسكندرية مساكن بديلة، بعـد أن تقـرر هدمها.

في الكارانتينا، ولدت سمية الدكر، يعود أصلها إل نـزلاء عنابر الأمراض المعدية، ولدت شديدة الـوهن فـي زرقـة

باهتة، أعيدت للحياة بصفعات عنيفة على صدغها، لذا لا تعبأ كثيرا كلما هوت اللطمات على وجهها في أقسام الشرطة!

منحت سمية مع غيرها شقق بغرب الإسكندرية في مناطق نائية، باعت سمية شقتها وفضلت الإقامة بإحـدى العشـش بجوار كوبري التاريخ بالقباري، مع من باع شقته، فهم لـم يخسروا شيئا، نقلوا من عشة بالكارانتينا إلى عشة أخرى إلى جانب مبلغ نقدي، أثمان شققهم التي باعوها سالت لها لعابهم، سمية سمراء اللون، فارعة الطول، وكما التضاد، يرف فـي عينيها وميض البراءة، وإذا قطبت حاجبيها عابسة، تكشـف عيناها – قبل الأوان – هم الكبر. أطلقت عليها أوصاف كلما تحورت مع كل مهنة تمارسها (سـمية السـريحة) بعيـدان البخور وعلب الثقاب وفي الصيف بالفل، (سمية القليبة) في أكوام القمامة، في كل مخـلاة، المتشـابهات مـن الزجـاج والبلاستيك والورق، (سمية سوابق) لها ملف بقسم مكافحـة الجرائم والسرقات والتعدي على الأنفس. عادة ما تساق عنوة للمثول أمام ضباط مباحث قسـم شـرطة (مينـا البصـل)، سمهرية القد، نافرة الصدر، خصلات شعرها بني اللون مـن شمس الصيف المحرقة، وفي الشتاء يعود للشعر لونه، أسود

في لمعة، تطلقه حرا لا يعرف عقصة. زوجهـا (مشـالي) العاطل، كان يعمل حمالا في الميناء، فصل في الخدمة بعـد ضبطه يعتلي السور الجمركي، وفي سرواله علـب سـجائر أجنبية، ومجلات جنسية فاضـحة، أنجبـت منـه (بهيـرة) و(مشعل)، بعد أن غادرت الكرانتينا، يتبعها من باع شـقته، حطت أحمالها.. حدقت في عتمة الحوش الخالي، قالت:

- الكرانتينا الجديدة.. ادخلوها برجلكم اليمين.

* * *

أطلت امرأة من شباكها الأرضي وقالت:

- على فين يا سمية؟

قالت دون أن تلتفت لها:

- ومال أمك، ليكي فيه؟

- يوه.. يا سمية، لو ضيوف خديهم بيت المهندس.

توقفت سمية وقالت:

- بيت المهندس هو المناسب.. لكن إيجاره غالي قوي.

مالت عن طريقها، واتجهت لبيت مشيد بعمارة هندسـية منمقة لا يتفق مع ما يحيطه من أكشاك أو عشش.

أخرجت مفتاحا من صدرها:

- اتفضلوا السلم من هنا.

صعدوا جميعا، اضاءت المصباح الخارجي، دخلوا، تنقلوا بين الغرف، صعدت السمندل للطابق العلوي، ثم تجمعوا في الصالون (العباسي).. راحت سمية تنظف دورة المياه، تنهـد الجفري:

- أين نحن وما لنا وهؤلاء؟

قال الأمير:

- سل السمندل.

قالت:

- من هنا سوف نعود إلى الأندلس.. أنا أدرى منكما.

قطب الجفري جبينه:

- كيف؟
- كما جاء في أقراص الزمرد، علينا أن ننسخه بأيدينا.
- وأين الكتاب؟ لقد أحرقته.

أشارت على رأسها:

- إنه هنا.. احفظ كلماته وسطوره، أرى الناس هنا هـم أصلح الناس لنسخه وسطهم.

أجابها الأمير وهو يحدق من النافذة:

- يكتب بينهم المعاجم لا الكتب.

دخلت سمية:

- أخطف رجلي.. أحضر لكم العشا.

أدارت لهم (التليفزيون) ولفت (الدِش) وقالت وهي تسقط (الريموت كونترول) في حجر السمندل:

- اتسلوا واتفرجوا ع الدنيا، بس إياكم والمحطات إياها بتاعة تركيا واللي ما يتسموا.

ثم غادرتهم.

قال الجفري وهو ينظر مشدوها:

- كأنه ثقب نطل من خلاله على الدنيا.

تلاعبت السمندل بالأزرار، تتابعت أمام أعينهم أصقاع العالم وغاباته، تتغور الصورة عبر الأزمنة والأماكن، ترتد بهم من فوق أسطح النجوم والكواكب إلى أغوار المحيطات، من صور سحيقة عن حضارات مندثرة إلى ضفائر الـ دي. إن. أيه، يشرح المعلق خفايا وأسرار الهندسة الوراثية، يصل إلى أفهامهم ما يصل، وما استعصى على أفهامهم يحال دونه ولا يصل، ضحكت السمندل:

- قلعة بوزكارن مصغرة، لا أندهش لانتقالنا من مغرب العرب إلى كوبري التاريخ.

بعد صمت أضافت:

- سحر لم يشهد مثيل له، دون رمل، ومطالعة النجوم دون قماقم، وطوى تمائم، وعقد العقد، وغلق طلاسم، إنه من كل ما ذكرت، سحر هذا الزمن، هذا القمقم وبساط الريح، إنه الجن في انطلاقه، فك أسره من قمقمه وعقاله، وراح يجول ويصول بلا رادع.

قبض الجفري على كفها وصرخ:

- عودي بنا للمنظر السابق.

أعادت المحطة السابقة.. (كانت امرأة يلعق شاب فرجها وهما عاريان).. هتف:

- لا أقصد منظر القحاب.. المنظر السابق.

تراجعت بالضغط على زر إلى المنظر الأسبق، كانت محطة فضائية تعرض فيلما عن السياحة الإسبانية، قال الجفري وهو ينتفض:

- قصر المبارك، هنا في تلك القلعة، كانت ولادتك يا مولاي.

أشار على الحدائق:

- هنا نصبنا لك المرجيحة.. مرتع صباك مولاي.

تعالت الطرقات على الباب، فتحه الجفري، دخلت امـرأة تجر جوالا تعقبه بآخر، وقالت:

- يخصوا سمية الدكر.

ثم أغلقت الباب.

قال الجفري:

- أخشى أن يكون بهما قتلى.

صدق حدسه، فقد انساب على الأرض سيال من الدم، من الجوالين، صرخ:

- قتيل، مثلما دس مولانا (المعتمد) في الأندلس مغنيتـه ومحظيته (الشهباء) داخل جوال بعد أن قتلها.

قال الأمير:

- لنهرب من هنا.

دفعت سمية المفتاح في ثقب الباب.. دخلت وهي تحمـل أكياسا:

- فيه إيه كفانا الشر؟

أشاروا على الجوالين:

- قتيلان.

ضحكت ملء شدقيها:

- عليه النعمة باين عليكم عـبط.. دي لحمـة وفـراخ الجمعية.

فتحت الجوالين وراحت تفرغ كتل اللحم والدواجن، لحقها ارتخاء فسال الدم منها، استداروا عنها يتابعون ما يعـرض أمامهم، زعق الأمير:

- قصر الحائر، في هذه الغرفة كنت أتلقـى دروسـي، والعزف على العود.

ألقت سمية ما في يدها، أخذت تحدق في الشاشة، تمسـح كفيها المدممتين عليها للتأكد من صدق الصورة وما يدعيـه الأمير، قالت:

- قصر مين يا خويا؟

قال الجفري:

- هذا قصر مولانا زيدان.

أشارت على الشاشة:

- القصر ده قصركم؟

قال الأمير:

- نعم، وغيره من القصور، كل ما تشـاهدينه أمامـك بيوتنا، حيث ولدنا، قصورنا لما كبرنا.

هوت بكفها على الشاشة، خلفت كفا من الدم عليها:

- معاكو الحجج؟ حجة البيت ولا القصر؟

زعقت:

- معاكو إللي يثبت؟

طأطأ الجفري رأسه وهمس:

- طُردنا منها، وأصبحت ملكا لغيرنا.

لطمت صدرها:

- أنا، ياللي اسمي أنا، معايا حجة خرابة الكرانتينا.

دفعت الجفري للخاف، فهوى فوق كرسيه، وقالت:

- اقعدوا.. اقعدوا جاتكو ستين ألف نيلـة، لا حصـلتوا قصور ولا حتى كارنتينا.

* * *

اعتلت الأريكة العباسية، فتحت الشباك، أخـذوا يتـابعون معالم قصر الحمراء، والآثار الإسلامية بإسبانيا مـن خـلال خطوط الدم الذي تخثر على الشاشة. نادت سمية الدكر على جارة لها، دار نقاشهما حـول مـا وزع اليـوم بالجمعيـة

الاستهلاكية، وما سيرد في الأيام المقبلة، دفعت جارتها لهـا جوالا، التقطته سمية، وراحت تنسل منه نتافا مـن القطـن وتدسه في صدرها، ألقت به بجانبها، وقالت:

- بطلنا خلاص.. عقبال الحبايب.

قالت جارتها في صوت خشن:

- موش حنسرح بكره؟

- لأ..

- إتغنيتي يا دكر؟

- عقبال أمك الحرامية.

أغلقت النافذة، راحت تفرغ أكياس اللحم، ومـن الجـوال الثاني الدواجن المجمدة، أشار الجفري:

- مثل هبات (الموحدين).

طرحت الأكياس:

- ما توحدوا اللي خلقكم.. ما حبش البحلقة في الحاجة.

مسحت كفيها في طرف جلبابها، وضعت ساعدها علـى كتف السمندل:

- بقولك إيه يا عسل، مين فيهم جوزك؟ استنى، الطويل الأسمر أبو شعر سايح صح؟

أومأت السمندل لها برأسها.

- طب يا حلوة والتاني مين؟

لم تجب، فقالت سمية:

- طب، كده فهمت.

جلست بينهم وأشعلت سيجارة، انطلق الدخان كثيفـا مـن فمها، ومن خنابتي أنفها، وقالت:

- اللحمة دي موش للأكل، دي أمانـة عنـدي.. أنـتم بتروحوا الجمعية؟ بصوا من يوم ما عملوا الجمعيات، أجدع طابور يوسع لي، وده ما جاش بالسـهل، فـي الأول كانت الزحمة تقوالش ولاد نمنم وشافوا قتيـل، أدخل في وسط النسوان، وهات يا صوات.. البـوك اتسرق، الحلق انسلت، شوية قرص وشوية ضـرب، ينفتح لي للبياع سكة، أجدعها زحمة نخـش جواهـا، دوروا يا نسوان على اللي اتسـرق وضـاع منـي، يطاطوا، هب أركبهم، أبقى أنا والبيـاع الـوش فـي الوش، يقول لي: طلباتك يا سمية. أخذ حاجتي وأتكل على ا ، هو إحنا بتوع طوابير، بعد كـده الجمعيـة

تبعت لي الكمية، أوزعها وأبيعها على الحبايب، آخـذ فيها قرشين، عرقي وأعرق بتوع الجمعية.

وحينما ساد الصمت، يحدقون فيها فـي دهشـة، مالـت هامسة:

- تشتروا لحمة، أطبخها لكم على العشا!

الفصل السابع

الحافر على الحافر

بعد العشاء، واكتفاء ثلاثتهم بطبق الجبن دون أن يمـدوا أيديهم إلى طبق اللحم، جلسوا في الصالون، وفيمـا كانـت سمية تذيب السكر في أكواب الشاي، كان الآخرون يحـدقون في السقف، ارتشفت سمية شايها وقالت:

- معاش السقف مبطع من المطر.

قال الجفري:

- تذكرنا قبة سعد السعود.

وضعت كوبها:

- بلا (سعد زغلول) ولا غيره، قبة إيه ومدنة إيه؟ بقول لكم إيه، حتفضلوا قاعدين كده، انزلوا البلـد، معـاكم الأول بطايق؟

لاذوا بالصمت، فأكملت:

- معاكمش؟ وماالوا.. بكره يكون عندكم بطايق، حكلـم لكم المهندس، حبايبه في السجل المدني، المهنة إيه يا سمية.. المهنة إيه؟

أشارت على الأمير:

- تاجر.. تاجر مواشي يا.. يا عطـار.. وأنـتِ بقـى، جسمك حلو وروشة.. فنانة.. فنانـة استعراضـية.. بيكتبوها دلوقتي كده..

أشارت على الجفري:

- وأنت قرداتي.. بقولك إيه يا ست سمندل تعالي معايا نخرج بره.

هب الأمير والجفري فجأة معا، يحولان دون خروجهـا، (شخرت) سمية وزعقت:

- فيه إيه منك له.. مرة مع اتنين رجاله، لو لواحد منكم جوزها يبقى مين التاني؟ لأ إحنا كل حاجة مـا عـدا حاجة.. الحاجة دي.. تلاقوها بره موش هنـا ولهـا أربابها.

انخرطت السمندل في البكاء، أشارت على الأمير:

- قلت لك أنه زوجي، والآخر شقيقي هرب معنا بعد أن اعترضت أسرتانا على زواجنا.

أخذتها في حضنها، تربت على ظهرها، وفي نبرة حانية:

- بس.. بس قطعت قلبي.. قُطع الحب.

وفجأة دفعتها عنها، وأطلقت صرخة مدوية، كتم الجفـري فمها بكفه، وقال للسمندل:

- واري حافرك.. رأته.

تملصت سمية بعد أن عضت كفه، عضة مدممة، ارتمت بجوار السمندل تحتضنها:

- منكم ، سايبنها كده، البنيه إتطلت في عمل، سـحر أرضي شمهورش، علاجها عندي، لازم تتعالج.

قال الأمير:

- ما العلاج؟

- زار.. الحاجة إكرام العامشة في العشة اللي جنبي.

- زار؟

- لأ أوعى تغلط، ليكوموك قرد جنبها.. كفايـه علـيكم حافر.

في صباح اليوم التالي انطلق نفير السيارة مدويا، قالـت سمية:

- المهندس وصل.

فتحت الباب:

- أهلا يا باشمهندس.. اتفضل.
- قالوا عندك ضيوف، كنت أجرت لهم شقتي بالعجمي.

صافحهم، ألقى لسمية كيسا، فضته، قالت عابسة:

- تاني يا باشمهندس؟
- جاهزه والا لأ؟ المرة دي أهم من السنة اللي فاتت.

أشعل سيجارة وسيجارة لسمية، قدم أخرى للسمندل، ردتها شاكرة، هبط قائلا:

- شدي حيلك يا سمية، التيار عالي، أنا في العربية.

شيعته من الشباك:

- كتر خيره، الأرض والحوش ملكه ولا حـد بيديلـه أجرة.

ثم غابت داخل غرفة، خرجت منقبة، ترفل في السـواد، يلتقم القفاز طول ذراعيها، من خلال الشـق تطـل عيناهـا المكحلتان، غادرتهم في صمت.

في العام الفائت.. جرت الانتخابات فـي حيـدة ونظـام، تنازعت التيارات والأحزاب على الفوز، وتصـارعت كـل الاتجاهات، لكن التيار الإسلامي المتشدد، شهد رواجا وإقبالا لم يسبق له مثيل، تزاحمت المنقبات والمحجبـات المؤيـدات للإسلام الأصولي بصورة أهاجت في النفوس المتنافسة قلقـا وهواجس، فإذا بإحدى المنقبات تندس بيـنهن، وأحجبـتهن، والإتيان بأفعال تخدش الحياء، تعالت الصرخات، هاج الزحام وماج، كان ما كان، فسقط التيار، رغم كثرة رواجه، وكانت المنقبة هي.. سمية الدكر، التي عادت ليلا، ترتمـي علـى الأرض أمام السمندل صارخة:

- لأ.. دول موش مسلمين، إتلموا علي النسوان وفـين يوجعك يا سمية، منهم .

جردتها السمندل من ملابسها، تملأ الكدمات والسـحجات وجهها وصدرها، ينزف الدم من رأسها:

- آه.. عضوني.. السعارنة.. ينتقم منهم ربنا.

تحاملت على نفسها، اعتلت العباسي، فتحت الشباك تنادي على ابنتها بهيرة التي هرولت، دخلت يكسو النقاب وجههـا، احتضنتها تعاتبها لعدم الانصياع لنصائحها لها، ورضـوخها

التام لأفعال المهندس، يكفيها مـا آلـت سـمعتها وفضـائح الجمعيات، ونبش الأقطان، صرخت سمية:

- فرحانة فيه يا بهيرة.
- أنت أمي.. لا يطاوعني قلبي على عصيانك.

قال الأمير:

- ابنتك؟
- بنتي الحيلة بتعلمني الأدب.. خيبتي يا سـمية خيبـة التاجر وطلعتي خايبة في العيال والراجل.

أخذت بهيرة تمسح نزف رأسها، تمسـد علـى شـعرها، همست سمية:

- كله عشان تتعلمي، خايفة تخيبي خيبة أمك.

قالت السمندل:

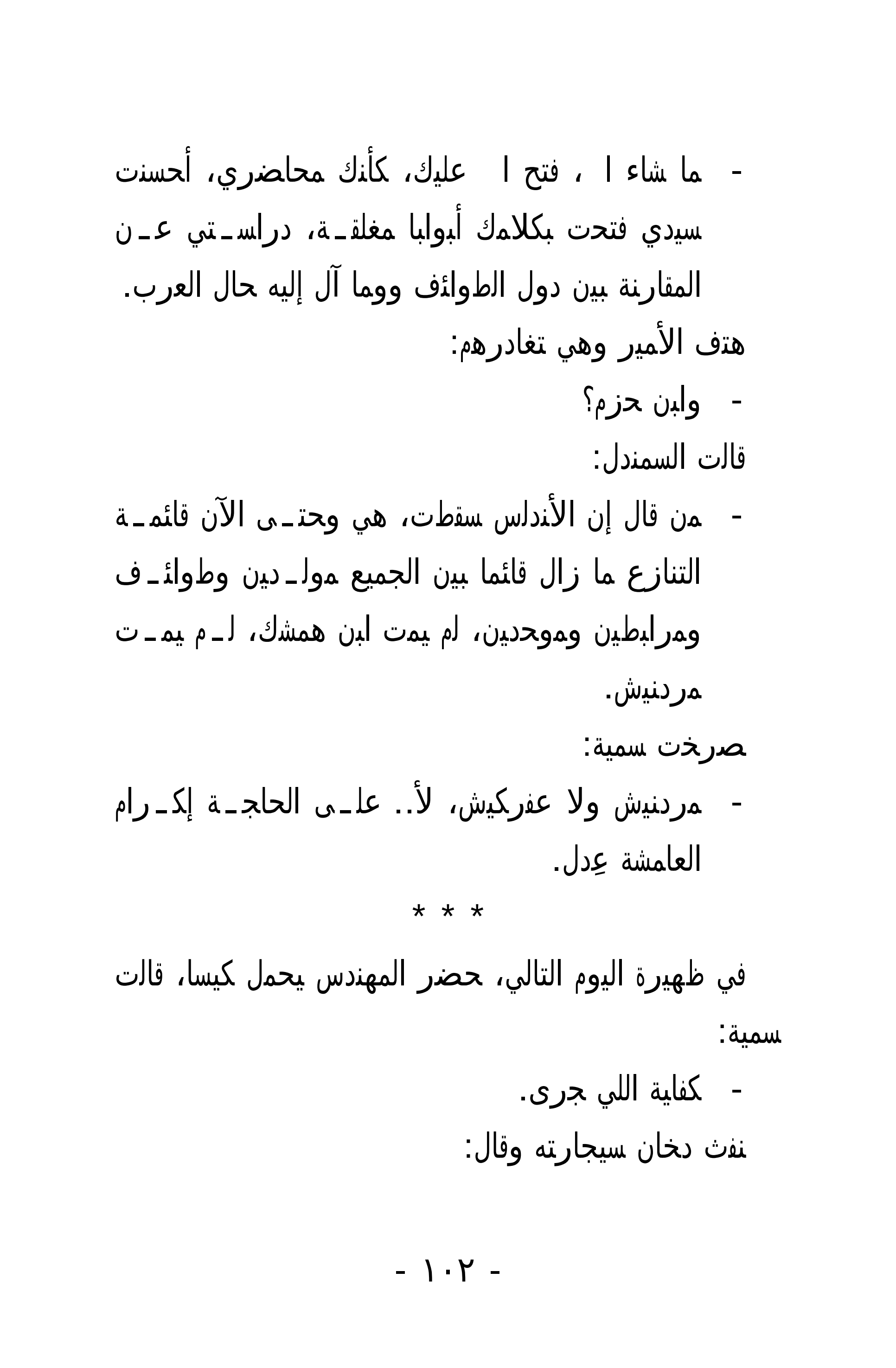
- هل تدرسين؟
- نعم في كلية الدراسات الإسلامية.

قال الأمير:

- وماذا تدرسين؟
- التاريخ والأدب العربي والعلـوم الإسـلامية، وأعـد دراسة التخرج عن ابن حزم.

- ابن حزم.. وماذا تعرفين عنه؟
- هو من أعظم فلاسفة الشرق والغرب، ومـن أعظـم أئمة الإسلام في الفقه والكلام، عاش في عصر فياض بالاضطرابات والخلافات المثيرة، هو عصر انحـلال الخلافة وقيام دولة الطوائف..
- دعيني أكمل لك.. كان عصر تفكك وانحلال سياسـي واجتماعي شامل، قامت دولة الطوائف على أنقـاض الأندلس الكبرى، تتسم كل طائفة بسمة الملك، تـزعم كل منها لنفسها الاستقلال بشئونها، وأنها قادرة علـى الحياة بمفردها، كانت الطوائف أقرب إلـى وحـدات الإقطاع وإلى عصبة الأسر القويـة ذات العصـبية، كانت عبارة عن قصور مترفة، ناعمة، غلبت علـى حكامها الأثرة والأهواء، نسوا في غمارهـا وطـنهم ودينهم بل نسوا حتى اعتبارات الكرامة، استسـاغوا لأنفسهم أن يترامو على أعتاب ملـوك النصـارى؛ يستعدونهم بعضهم على بعض.. وهم المسلمون.

تركت رأس أمها يهوي من بين يديها، فتأوهت، صـفقت بهيرة بكفيها:



- ما شاء ا ، فتح ا عليك، كأنك محاضري، أحسنت سيدي فتحت بكلامك أبوابا مغلقة، دراستي عن المقارنة بين دول الطوائف ووما آل إليه حال العرب.

هتف الأمير وهي تغادرهم:

- وابن حزم؟

قالت السمندل:

- من قال إن الأندلس سقطت، هي وحتى الآن قائمة التنازع ما زال قائما بين الجميع مولدين وطوائف ومرابطين وموحدين، لم يمت ابن همشك، لم يمت مردنيش.

صرخت سمية:

- مردنيش ولا عفركيش، لأ.. على الحاجة إكرام العامشة عِدل.

* * *

في ظهيرة اليوم التالي، حضر المهندس يحمل كيسا، قالت سمية:

- كفاية اللي جرى.

نفث دخان سيجارته وقال:

- هذه المرة، ليست كالمرات السابقة، أنت الليلة سـمية هانم.. الليدي سمية.. مدام سمية الدكروري.

فض الكيس، التقط معطفـا مـن فـراء (الإسـتراكان) و(شابوه) من فراء (المينيك)، وقفازا من الحريـر الأسـود، وناولها عليه مصاغ، تحوي جواهر مزيفة:

- أفهم إيه دا كله؟

- الليلة، في (الروتاري)، حفل عشاء، يقيمه منافس لي، يريد أن ينفرد بنفسه ويخطف المستثمر الذي رشـحنا معا، منافسي لا يشق له غبار في الولائم والحفـلات، كل ما هنالك، أن تجعلي زوجة المسـتثمر، تخـرج وهي تقسم بأن يسقط زوجها عن منافسي ترشيحه له، فأنفرد أنا بترشيحه، افعلي معها ومع المدعوات كل ما تفعلينه في الجمعيات.. ولا يهمك يا سمية النسوان في الحفلة بويه بس.. دي بطاقـة عضـوية الروتـاري باسمك، ودي دعوة باسم سمية الدكروري، والصورة دي بتاعة زوجة المستثمر، حتلاقي الناس بيحيطـوا بها، بيجاملوها، شعرها أصفر، عينيها خُضر وبترطن بالأفرنجي.

قاطعته:

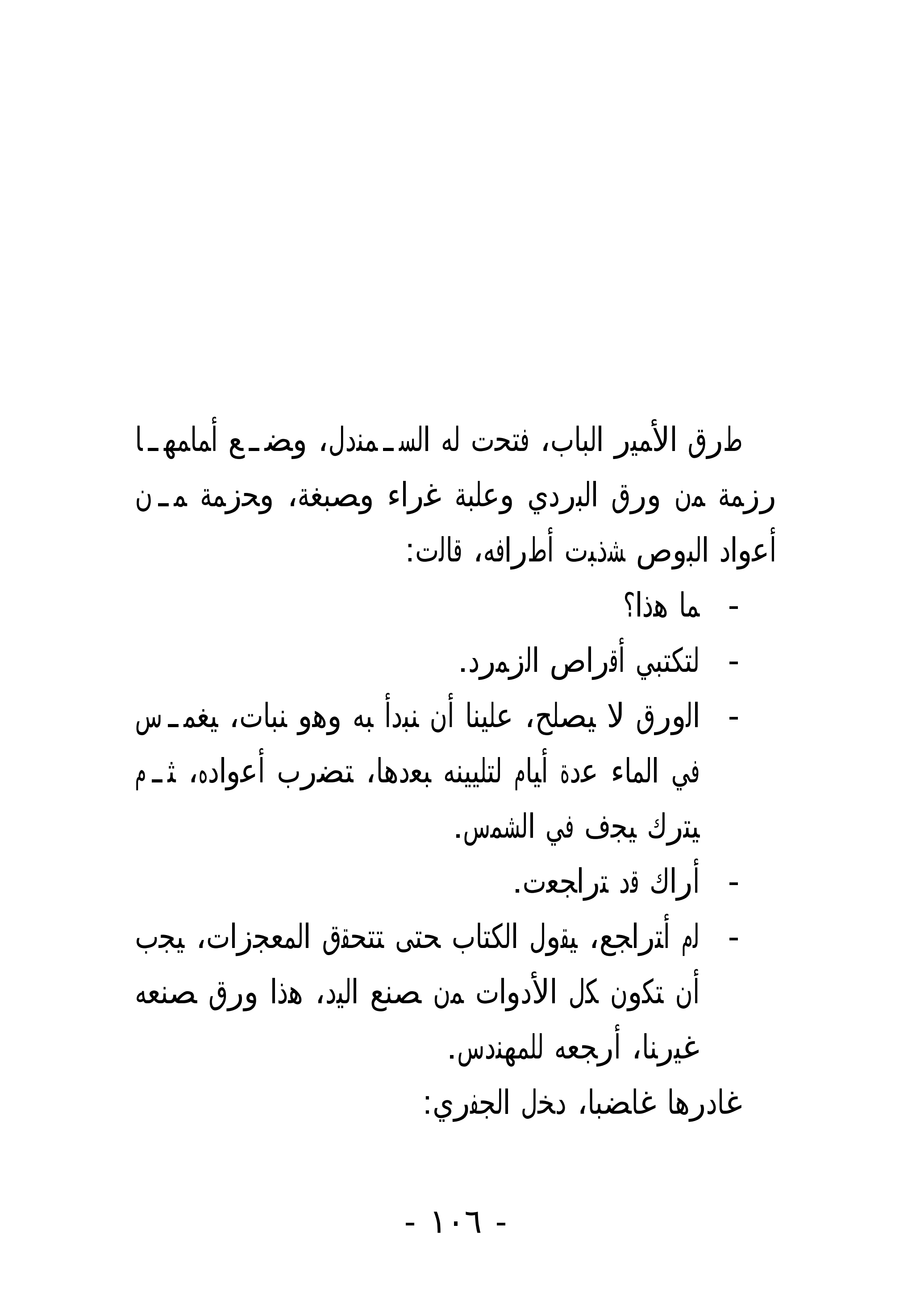
- كلهم بيصبغوا، وبيحطوا في عينهم إزاز ملون، وبيرطنوا باللاوندي.
- حتعرفيها، أنت بنت حنته.. بتعرفي اللي في الشوال من غير ما تفتحيه.

وقف الجفري خلف السمندل، يراقبانها وهي تخطو ليلا بمعطفها وقبعتها، تضوي في التماع حاد على زنديها، الألماس والجواهر.. تدخل عربة المهندس.. وغادرت بها الحوش، همس الجفري لنفسه:

- سمندل أخرى.

الفصل الثامن

كباريه الأندلس وكسارة البندق



طرق الأمير الباب، فتحت له السمندل، وضع أمامها رزمة من ورق البردي وعلبة غراء وصبغة، وحزمة من أعواد البوص شذبت أطرافه، قالت:

- ما هذا؟
- لتكتبي أقراص الزمرد.
- الورق لا يصلح، علينا أن نبدأ به وهو نبات، يغمس في الماء عدة أيام لتليينه بعدها، تضرب أعواده، ثم يترك يجف في الشمس.
- أراك قد تراجعت.
- لم أتراجع، يقول الكتاب حتى تتحقق المعجزات، يجب أن تكون كل الأدوات من صنع اليد، هذا ورق صنعه غيرنا، أرجعه للمهندس.

غادرها غاضبا، دخل الجفري:

- وبعد؟ الأمير لا يطيب له المقام هنا.. عاد للشرود ليلة أمس.

أغمضت عينيها، ارتعدت، مدت ساقيها للجفري صارخة:

- عليك بالظلاف.. إنه يتشقق.

جذبه الجفري، خرج في يده، ظهرت أصـابعها بيضـاء دافئة، مال الجفري على أصابعها ولثمها، ابتسمت وقالت:

- الآن فقط اكتملت.

هبت واقفة:

- بيدي وليس بخفق قلب غيري.. احضر لي جوالا.

جذب لها من ركن بالغرفة جوال سمية الدكر.

استلقت على ظهرها، حجبت عينيها بكفها، أدخلت كفهـا الأخرى داخل الجوال، ارتعد جسـدها، تنـتفض أوصـالها، فركت في الجوال أوراقا مالية من كـل العمـلات، أفسـح الجفري فتحته، يهوي بالجوال على الأرض ليمتلئ، اسـتقام الجوال واقفا، محشوا بالبنكنوت، تأوهت السمندل، أخرجـت كفها تنز دما، تلعق إصبعيها بفمها، في ضحكة مشرقة قالت:

- قد زال مني وللأبد ما للسمندل مـن خـوارق، الآن حققت ذاتي، أنا حقيقة أوفيت بوعدي منذ قطعت على

نفسي عهدا.. أنا.. أنا.. أنا اليوم فقط.. لا أمس لي.. وبقي في ضمير الغيب غدي.

استدار المهندس بسيارته، حينما شاهد مولانا زيدان يقف شاردا على كوبري التاريخ، أشار عليه بالركوب.. ثم انطلق به.. في وسط الإسكندرية، أوقف سيارته، دعاه للهبوط، تأبط ساعده، يحدق زيدان حوله في دهشة، خرجا إلى الكورنيش، قال له:

- سهرة الليلة لن تنساها.
- أين؟
- في ليالي الأندلس، أنا صاحب المحل.

كانت الراقصة تتمايل، تتثنى تحـت ومضـات الضـوء الأحمر والأزرق، يصطخب المكان مـن هـدير الموسـيقى الزاعقة، شهق زيدان:

- جارية.

ضحك المهندس:

- لا.. لم نسكر بعد.. هل تعجبك؟
- مثيرة.
- هي زوجتي.. عرفى.. اشرب.

انطلق التصفيق الحاد مع انسحاب الراقصة، وفد الشـباب على المرقص يتمايلون، يتوسطهم مطرب شاب:

- بقولك إيه أنت منين؟
- أنا من المغرب، أبي هو آخر ملوك الأندلس.

ضحك:

- ا تبقى أنت ابني، أنا ملك كباريه الأندلس، منين في المغرب.؟
- مراكش.
- أنا رحت المغرب، والسوق الـداخلي، تعـرف زي شارع الحمرا في بيروت، نسوان إيه.. ورحت طنجة مع واحد صاحبي.. دخـل غرفـة العمليـات.. و.. وطلع..

غرق في الضحك حتى أدمعت عيناه:

- طلع مرة، أصل طنجة بيقولوا عليهـا أكبـر مركـز علشان يتحولوا.. مالك فيه إيه؟
- انقباض في صدري وأريد أن أفرغ مثانتي.
- دورة المياه على الشمال آخر الطرقة.

فيما كانت الموسيقى تصم الآذان، أخذت الجميع حمية الرقص والتمايل، عاد زيدان مهرولا وهو يصيح:

- علينا مغادرة المكان فورا.
- فيه إيه فهمني؟
- عد بي.. عد بي.. استغفر ا العظيم.

في السيارة، طلب منه أن يتوقف، أدلى رأسه من النافذة وتقيأ.

- مالكش في الخمرة، كنت قلت من الأول.
- ما اسم هذا المكان؟
- كباريه ليالي الأندلس.
- ليالي العهر والدنس، ما كدت أتهيأ لإفراغ مثانتي حتى مد من يجاورني يده و..

وتدفق سيال قيئه.. ولم يكف المهندس عن القهقهة.

عبرت السيارة سور الحوش، كانت سمية بجوار الباب الخارجي، سألها المهندس عن سبب سهرها إلى هذه الساعة المتأخرة، قالت له لم يعد ابنها (مشعل) وابنا المنجد ومعهم كلبهم منذ ليلة أمس، هدأ من روعها وأمرها أن تأوي لفراشها. مشعل أنجبته سمية على كبر، عمل بالميناء وطرد

لكثرة تطاوله على العمال والعملاء ورجال أمن الساحات، مد غير مرة يده على البضائع في خفية مـ ـن أصـ ـحابها، كـ ـان عتالا، يفتح الحاويات، لا يغادرها إلا بدس كل ما تطوله يداه في ملابسه، ضبط وبحوزته أشرطة فيديو (بورنو)، لجـ ـأت سمية إلى المهندس فأخرجه من محبسه، ثم ألحقه بورشته في صدارة الحوش لإصلاح السيارات، كان الحـ ـوش فسـ ـيحا، يستقبل السيارات التي تعطل من أصحابها فجأة، كان لموقـ ـع ورشة المهندس ميزة، فلا يفصلها عن الشارع العمومي سوى السور، لذا فهو يقيم دوما بالحوش، نادرا ما يذهب المهندس لشقة الزوجية بالعجمي. ذات ليلة قصد الحوش سائق شاحنة تحمل حاوية، خارجة من الميناء إلى القاهرة، همس مشـ ـعل لنفسه (تركت بسبب أمثالها الميناء.. وها هي تتبعني الحاوية حتى هنا)، أسقط قرصا منوما في شاي السائق، انسـ ـل مـ ـع صبيان الورشة داخل الحاوية، يأخذ الذهول بلبهم، أثاث وارد من إيطاليا، أغطية ووسائد ريش نعام، أطقم شاي، وصيني، والمطبخ من الفضة الخالصة، تاهت العيـ ـون بـ ـين التحـ ـف واللوحات والأطعمة المعبأة، زجاجات الخمر والنبيذ، علـ ـب هدايا، أطقم أقلام مذهبة، ومقاعد مـ ـن الخشـ ـب المحفـ ـور،

ومناضد مطعمة بالنحاس، وعلب مـن الصـدف والثريـات ورنين شقف الكريستال يضوي بألوان الطيف، لما غـادروا الحاوية مع أحمالهم.. اعتصرت الحسرة قلـوبهم إذ وطئـت أقدامهم وحل الحوش مرة ثانية.

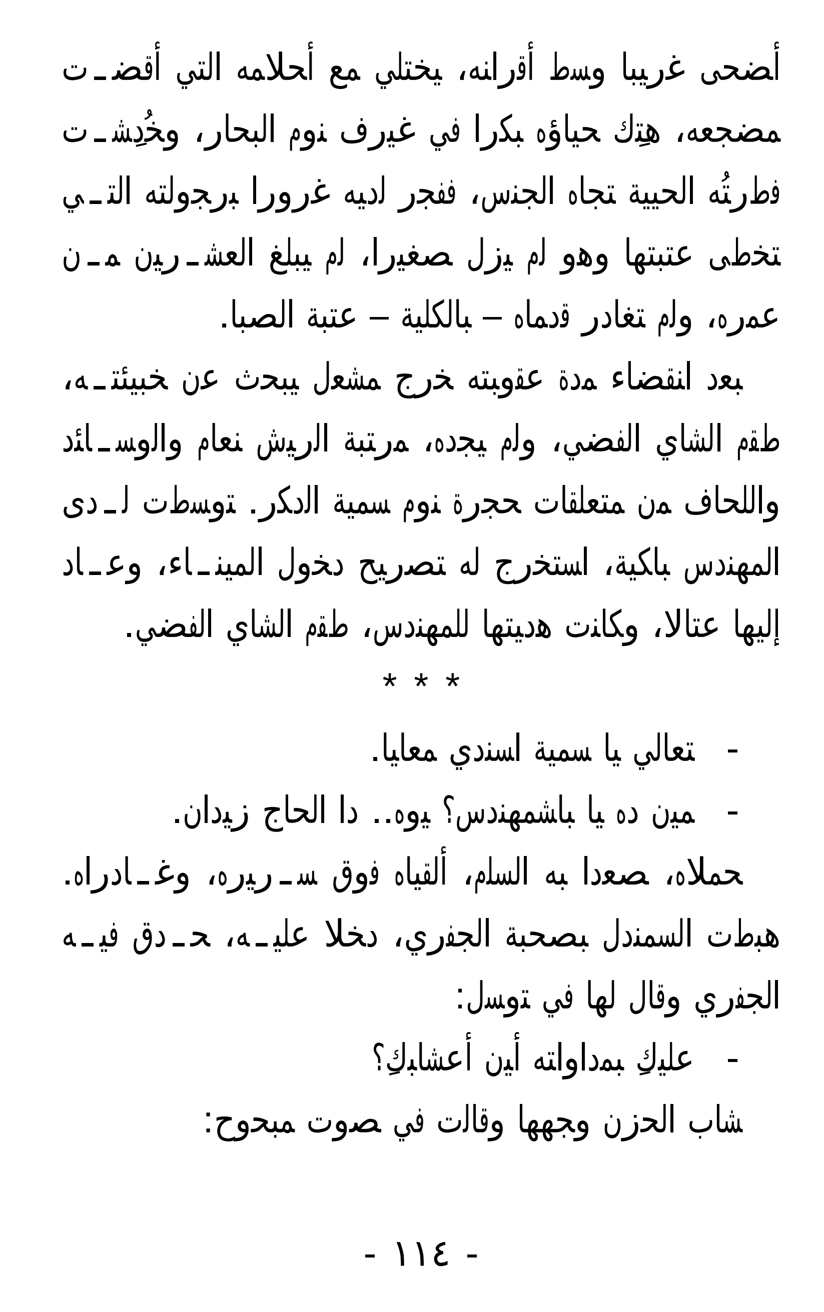
ما إن غادرهم السائق، رافعا يده شـاكرا، حتـى انقلـب الحوش في عـراك وتطـاحن بالأيـدي، تنـازعوا علـى المسروقات، وأشهرت في الوجوه المدى. في الصباح، كانوا جميعا في محبس قسم شرطة (مينا البصل).

كان مشعل قد عرف أوروبا وأمريكا من مطابخ سـفنها، أستدرج إلى داخل السفينة يلتهم ما يشاء بمطابخها، ويشـرب زجاجات خمورها من فوهاتها مباشرة، وعندما يبلـغ منـه السكر غايته، يخلعون عنه ملابسه، يطرحونه فوق أسرتهم، التي يتناثر فوقها أعداد لا تحصى من مجلات الـ ـ (بـلاي بوي)، يلتقطون صورا له، تتسلط عدساتهم علـى عضـوه المنتصب في انتعاظ فحولي، صور بالفيديو وهو يهوي بـه على حبة (عين الجمل) فانفلقت إلى نصفين، وانتقل شـريط الفيديو من شرق أمريكا الأطلسي حتى غربها بكاليفورنيـا، وعرف الشريط باسم (ناط كراكر).. كسارة البندق.

كلما حطت السفن بميناء الإسكندرية يسأل البحارة الشواذ عن (ميشال) أما السفن الوافدة من أمريكا، يسأل بحارتها عن (الناط كراكر). جمع مشعل من العناوين والخطابات ما مـلأ بها أريكة سمية السحرية، تلقى وعودا باستقباله إن هو غادر البلاد، يحشو أرقام تليفونات في حافظته، وأرقام لا تعـد ولا تحصى من هواتف محمول وصور، أغربها صور طباخـة إحدى السفن، لا يعرف جنسيتها، تحضتن طفلا تـدعي أنـه منه.

لم يكن مشعل ابن الحوش قط، وإنما ابن الأفق البحـري الذي يطالعه، يمتد أمامه على مدار خط الأفق، يطالعه مـن نافذة كشكه، من باب ورشته، في صحوه ومنامه، يؤجل كل أحلامه إلى ما بعد هذا الأفق.. أفق الميناء، وأن يومـا مـا سيعبره، شاء القدر أو عانده، يترك خلفه تاريخ أمه وملـف سوابقها وسوابقه.

تخلى عن قديم ملابسه، وارتدى ما يجـود بـه مهندسـو السفن وبحارتها، وحتى نساء مطابخها، عرفـت زجاجـات العطور الفاخرة طريقها من غـرف نـوم قباطنـة أو مـن مهندسي السفن إلى رف عشته! يتجول مختالا بالحوش، حتى



أضحى غريبا وسط أقرانه، يختلي مع أحلامه التي أقضت مضجعه، هتِك حياؤه بكرا في غيرف نوم البحار، وخُدِشت فطرتُه الحيية تجاه الجنس، ففجر لديه غرورا برجولته التي تخطى عتبتها وهو لم يزل صغيرا، لم يبلغ العشرين من عمره، ولم تغادر قدماه – بالكلية – عتبة الصبا.

بعد انقضاء مدة عقوبته خرج مشعل يبحث عن خبيئته، طقم الشاي الفضي، ولم يجده، مرتبة الريش نعام والوسائد واللحاف من متعلقات حجرة نوم سمية الدكر. توسطت لدى المهندس باكية، استخرج له تصريح دخول الميناء، وعاد إليها عتالا، وكانت هديتها للمهندس، طقم الشاي الفضي.

* * *

- تعالي يا سمية اسندي معايا.
- مين ده يا باشمهندس؟ يوه.. دا الحاج زيدان.

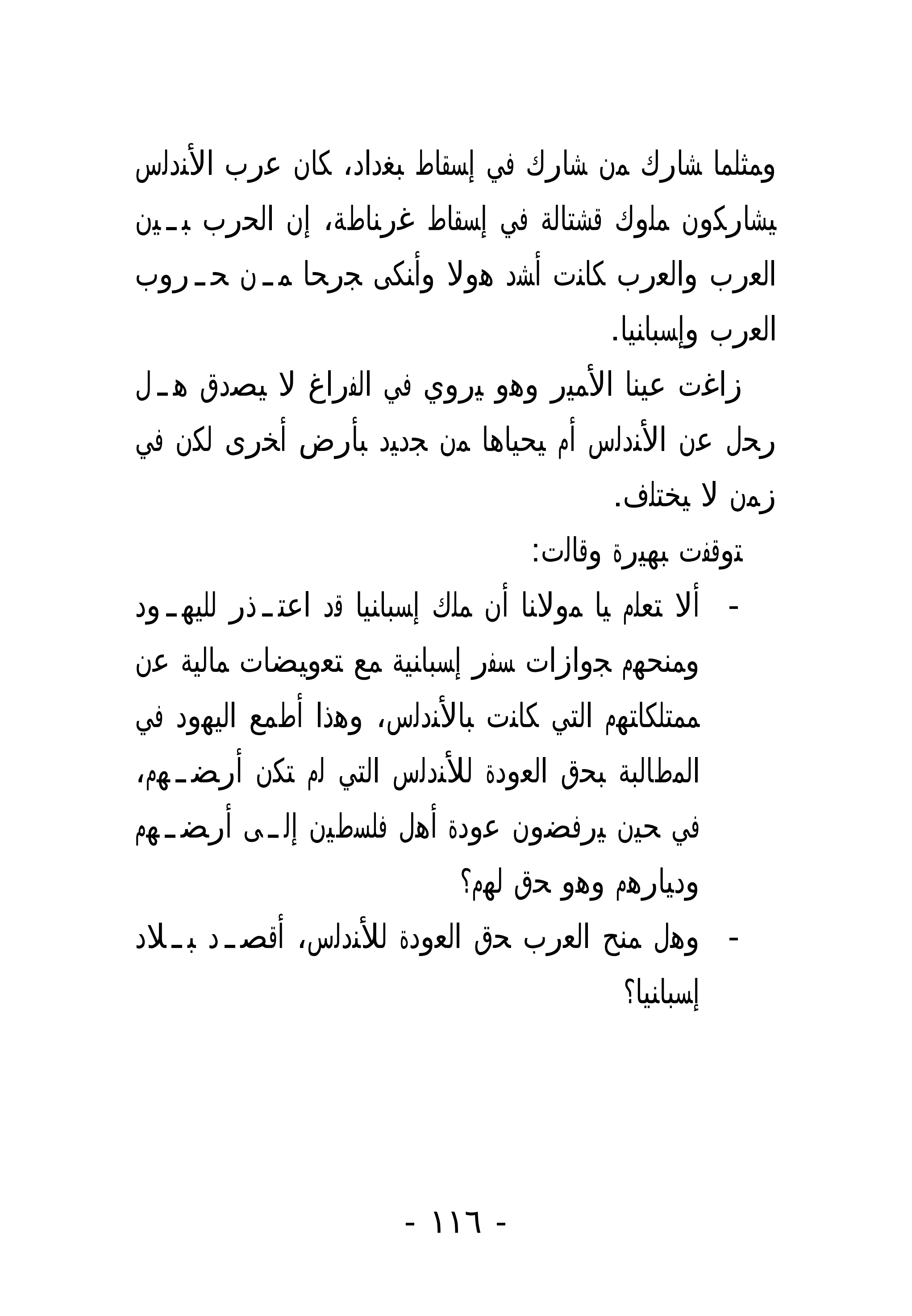
حملاه، صعدا به السلم، ألقياه فوق سريره، وغادراه. هبطت السمندل بصحبة الجفري، دخلا عليه، حدق فيه الجفري وقال لها في توسل:

- عليكِ بمداواته أين أعشابكِ؟

شاب الحزن وجهها وقالت في صوت مبحوح:

- تتحدث عن أمور مضت.

في الصباح، شاهدت بهيرة الأمير زيـدان يتجـول فـي الحوش، هرولت إليه وهي تحمل كتبا وأوراقا، حازتـه فـي تجواله، نقلت إليه ما أنجزته في دراستها، ولكن استعصـى عليها وضع يدها على الأسباب الخفية لزوال الإسـلام عـن بلاد الأندلس، تطرقا في حديثهما عن بغداد عاصمة الخلافة، والأمير ينقل إليها دهشته، كأنه يحيا في دوار، لا يصدق مـا تراه عيناه في الأخبار المصورة والمسموعة.. متـى شـيد اليهود دولة؟ فاستعلت وتجبرت، لا يماثلها أمة من الأم، مـا عاصره.. أن يهود الأندلس كانوا في حضن دولة الإسـلام، ومن زج بهم للخارج هي قشتالة مع من طردتهم من العرب، وأين كان العرب عشية سقوط بغـداد علـى يـد (فرنانـدو وإيزابيلا) بعد أن جلبا من كل أوروبا المدافع تدك (غرناطة بغداد) وبعد حصار (غرناطة بغداد) نفدت كل المؤن إلى أن وقع أهل غرناطة وثيقة الاستسلام، رغم كل الوعود البراقـة التي تضمنتها المعاهدة من الإبقاء على بيـوتهم ومسـاجدهم ولغتهم ودينهم، إلا أنهم أرغموا على ترك ديارهم وقصورهم ودينهم والويل لمن لا يشرب الخمـر ولا يأكـل الخنزيـر،



ومثلما شارك من شارك في إسقاط بغداد، كان عرب الأندلس يشاركون ملوك قشتالة في إسقاط غرناطة، إن الحرب بين العرب والعرب كانت أشد هولا وأنكى جرحا من حروب العرب وإسبانيا.

زاغت عينا الأمير وهو يروي في الفراغ لا يصدق هل رحل عن الأندلس أم يحياها من جديد بأرض أخرى لكن في زمن لا يختلف.

توقفت بهيرة وقالت:

- ألا تعلم يا مولانا أن ملك إسبانيا قد اعتذر لليهود ومنحهم جوازات سفر إسبانية مع تعويضات مالية عن ممتلكاتهم التي كانت بالأندلس، وهذا أطمع اليهود في المطالبة بحق العودة للأندلس التي لم تكن أرضهم، في حين يرفضون عودة أهل فلسطين إلى أرضهم وديارهم وهو حق لهم؟
- وهل منح العرب حق العودة للأندلس، أقصد بلاد إسبانيا؟

- الأمراء وأسر الحكام والأثرياء.. يدخلون مصـايفها ونواديها الليلية، مع تأشيرة الـدخول تمـنح تأشـيرة أخرى للمغادرة.

غام على وعي الأمير دوار، تهتف ظنونـه أنـه كمـن يستدير أمام مرآة، وولج في غورها لا يعرف لـه مخرجـا، شهقت بهيرة:

- مولانا.. خفف يديك تكاد تكسر ذراعي.

استفاق الأمير، نظر نفسه يمسكها من ذراعيها يهصرهما، أرخى بصره، واعتذر.. كاسف البال.

أسرعت ودخلت بيتها الخشبي، تحدق فيه، تهمس لنفسـها (لن أتسرع وأحكم عليك بالجنون مثلما يهمس البعض عنك، مثلما قرأت يوما في كتاب عاطفي (أروع الأفكار تلك التـي يقترحها الجنون ويكتبها العقل) [1] ما رويته لـيس جنونـا، ما زلت في عيني مولانا الشاب أكحل العينين، جميل المحيا، حسن النبرة، شجي الصوت، وفوق كل هذا.. هـذا الحـزن الذي يضاعف من سحرك، والإلمام المعرفي الفيـاض بمـا يزيد من غموضك).

---

(1) أندريه جيد (يومية آخر سبتمبر).

كانت السمندل تراقبهما، قالت للجفري:

- لكم تعجبني بهيرة، وسـط هـذا الحضـيض أراهـا رافضة، تتطلع إلى خارج السـور، تتعـدى حـدود المكان، فأجادت حتى في انتقاء الأحـلام، تعلـم أن الحوش هو الوهم والحقيقة فهي مـا تسـعى إليـه.. حبيسة الحوش.. سجينة الضعة.

مال الجفري:

- ألا تغارين يا سيدتي؟
- (أن تُحِب لا شيء، أن تُحب ربما يكـون شـيئًا، أن تُحِب وتُحب معا فهو كل شيء) [1].

ابتعدت عن النافذة وقالت:

- أنا خرجت من بوزكارن، وهو دخلها، دخلها مسحورا وليس بساحر، واستمرأ محبس جدرانها.

---

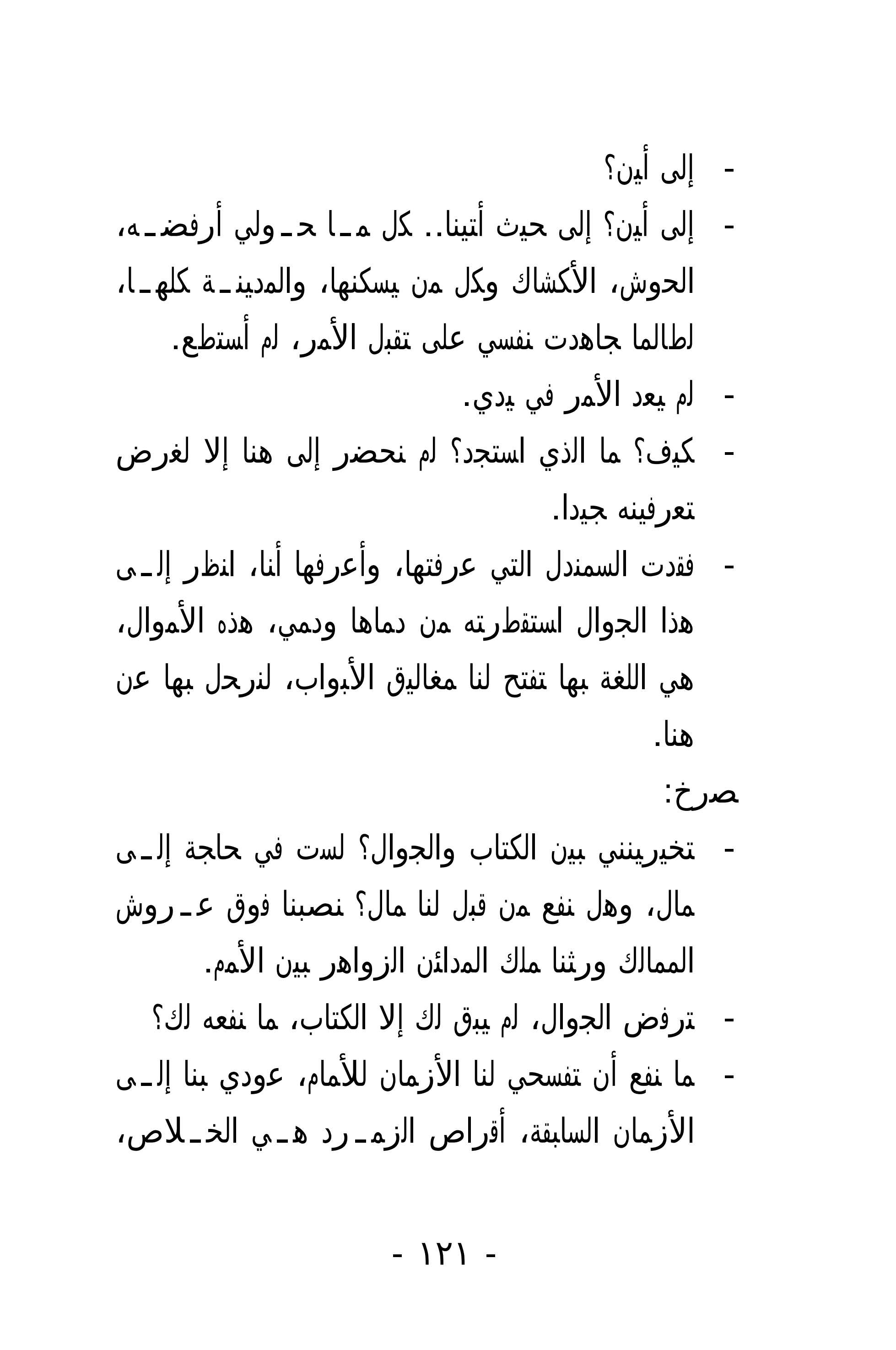
(1) وليم شكسبير (روميو وجوليت).

الفصل التاسع

جهر الصمت

لم يتغيب عن الحوش مشعل وحده، تغيب نجـلا المنجـد ومعهما كلبهما، دارت سمية والمنجد على أقسـام الشـرطة، والمستشفيات، وانتهيا إلى المشرحة، لم يعثر على أثر لهـم. خشيت الأمهات على أولادهن، لا يسمحن لهم بالخروج عقب العشاء، تجلس سمية على السور بجوارها المنجد، يحدقان في كل سيارة، يتطلعان في أفق الشارع، يسألان عنهم النـاس، يقضيان جل النهار في الانتظار، لا يغادران السور إلا فـي أنصاف الليالي، يعاودان الكرة في الصباح، يعزفـان عـن الأكل، بلغ منهما الوله منتهاه، ومن النسوة اللائي أحطن بهما يهدئن من روعهما بلا جدوى.

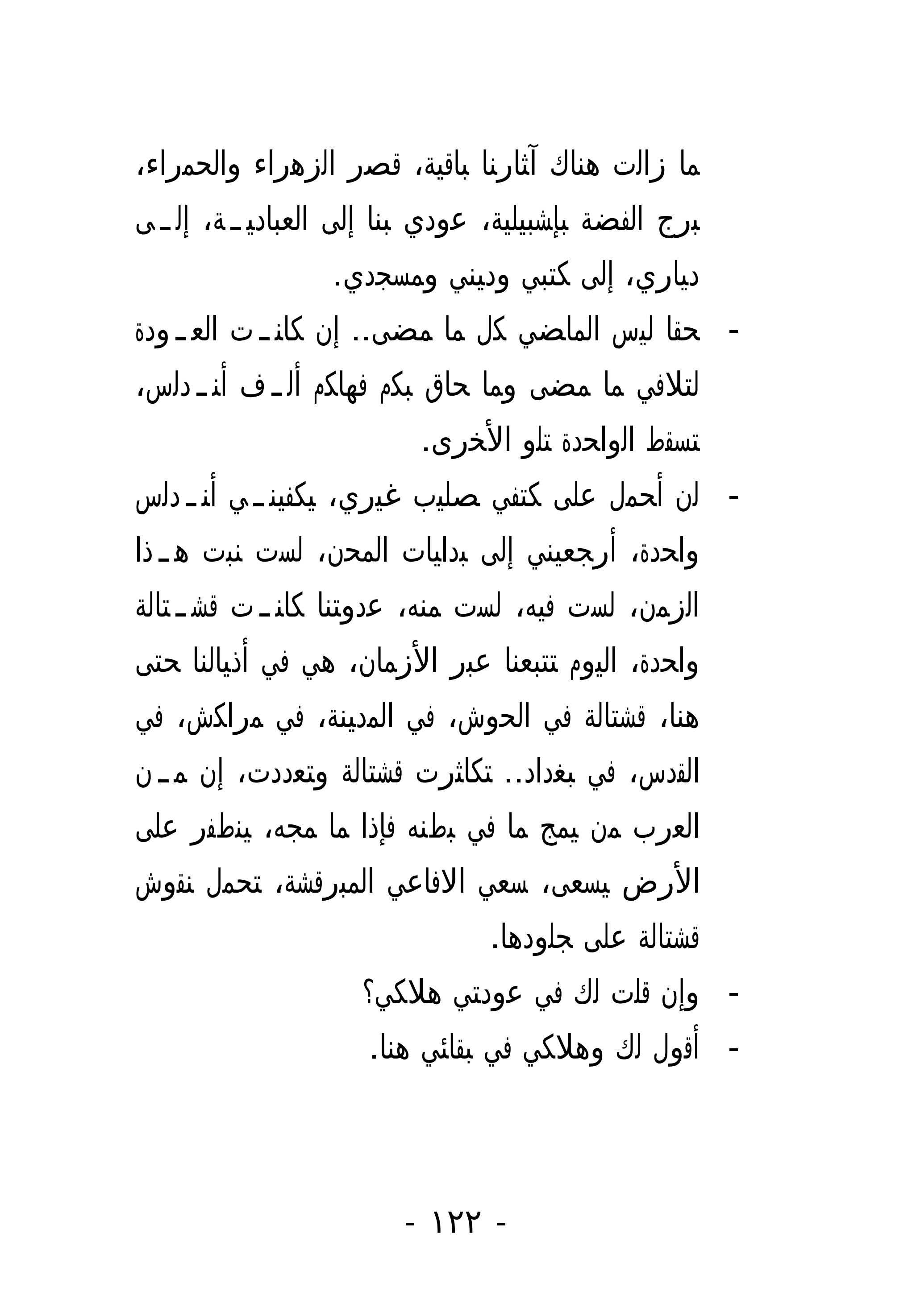
صعد الأمير إلى السمندل، أخذ يلح عليها في العودة إلـى حيث أتوا، وأنه لم يطب له المقام في هذا الحـوش، أجابـت السمندل:



- إلى أين؟
- إلى أين؟ إلى حيث أتينا.. كل مـا حـولي أرفضـه، الحوش، الأكشاك وكل من يسكنها، والمدينـة كلهـا، لطالما جاهدت نفسي على تقبل الأمر، لم أستطع.
- لم يعد الأمر في يدي.
- كيف؟ ما الذي استجد؟ لم نحضر إلى هنا إلا لغرض تعرفينه جيدا.
- فقدت السمندل التي عرفتها، وأعرفها أنا، انظر إلـى هذا الجوال استقطرته من دماها ودمي، هذه الأموال، هي اللغة بها تفتح لنا مغاليق الأبواب، لنرحل بها عن هنا.

صرخ:

- تخيرينني بين الكتاب والجوال؟ لست في حاجة إلـى مال، وهل نفع من قبل لنا مال؟ نصبنا فوق عـروش الممالك ورثنا ملك المدائن الزواهر بين الأمم.
- ترفض الجوال، لم يبق لك إلا الكتاب، ما نفعه لك؟
- ما نفع أن تفسحي لنا الأزمان للأمام، عودي بنا إلـى الأزمان السابقة، أقراص الزمـرد هـي الخـلاص،



ما زالت هناك آثارنا باقية، قصر الزهراء والحمراء، برج الفضة بإشبيلية، عودي بنا إلى العباديـة، إلـى دياري، إلى كتبي وديني ومسجدي.

- حقا ليس الماضي كل ما مضى.. إن كانـت العـودة لتلافي ما مضى وما حاق بكم فهاكم ألـف أنـدلس، تسقط الواحدة تلو الأخرى.
- لن أحمل على كتفي صليب غيري، يكفينـي أنـدلس واحدة، أرجعيني إلى بدايات المحن، لست نبت هـذا الزمن، لست فيه، لست منه، عدوتنا كانـت قشـتالة واحدة، اليوم تتبعنا عبر الأزمان، هي في أذيالنا حتى هنا، قشتالة في الحوش، في المدينة، في مراكش، في القدس، في بغداد.. تكاثرت قشتالة وتعددت، إن مـن العرب من يمج ما في بطنه فإذا ما مجه، ينطفر على الأرض يسعى، سعي الافاعي المبرقشة، تحمل نقوش قشتالة على جلودها.
- وإن قلت لك في عودتي هلاكي؟
- أقول لك وهلاكي في بقائي هنا.

- إذن نحمل أموالنا ونرحل عن هذا المكـان فهـو لا يحتمل.

- الزمن كله، وليس المكان وحده.

كانت دموعه على مشارف حدقتيه وهو ينظر للسماء:

- لو أننا بلا أسماء، لأخطأت كثيـر مـن المصـائب عناويننا، لنعمنا لبعض الوقت بقليـل مـن الراحـة، بإهمال القدر لنا.

رفعت له وجهها وقالت في انكسار:

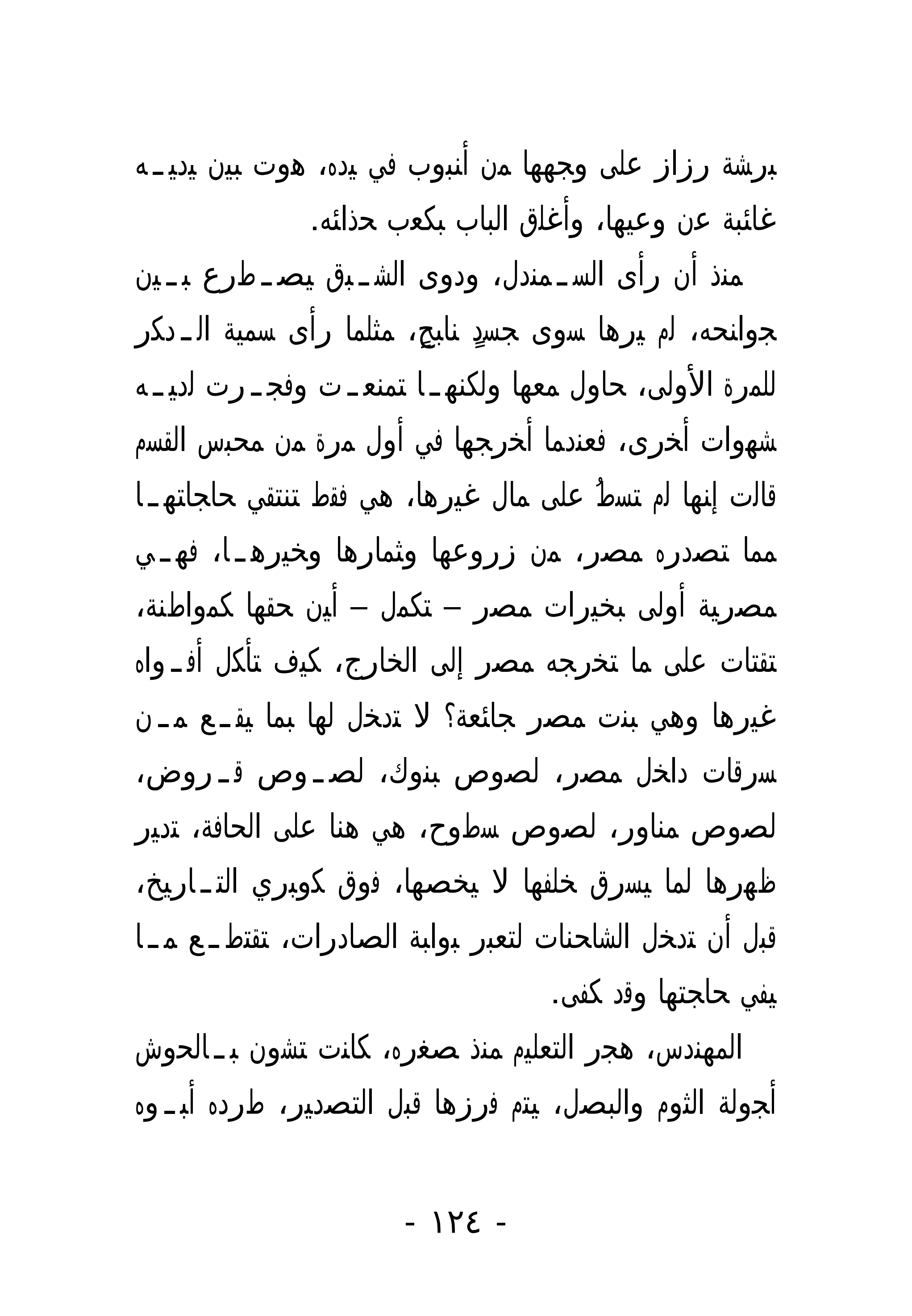
- لا تهم الأزمان، لا تهم الأماكن، لم لا نتلاقـى معـا، بالحب، بدفء صدورنا تتحقق لنـا وحـدة الزمـان والمكان معا.. أنا بالحب تواجدت، تلاقيت وأنا.

وعندما طال صمته، حدقت فـي ظلـه المفتـرش أرض الغرفة وصرخت:

- ملعون من يواجه الشمس هربا من ظله!

* * *

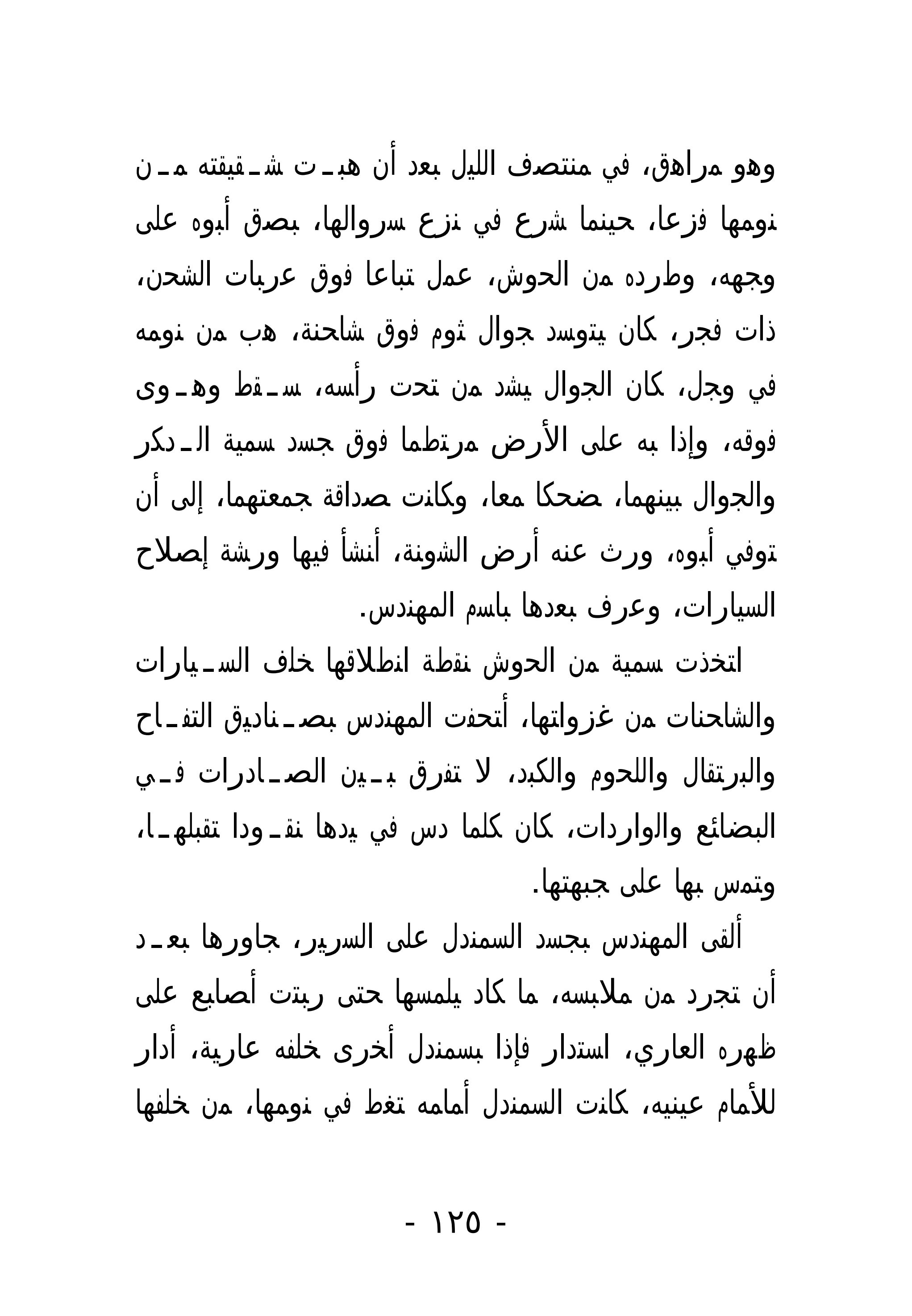
صعدت السمندل إلى دورها العلوي، بلـغ بهـا الـوهن المنتهى، كان الباب مواربا، دفعته للداخل، عاجلها المهنـدس



برشة رزاز على وجهها من أنبوب في يده، هوت بين يديـه غائبة عن وعيها، وأغلق الباب بكعب حذائه.

منذ أن رأى السـمندل، ودوى الشـبق يصـطرع بـين جوانحه، لم يرها سوى جسدٍ نابجٍ، مثلما رأى سمية الـدكر للمرة الأولى، حاول معها ولكنهـا تمنعـت وفجـرت لديـه شهوات أخرى، فعندما أخرجها في أول مرة من محبس القسم قالت إنها لم تسطُ على مال غيرها، هي فقط تنتقي حاجاتهـا مما تصدره مصر، من زروعها وثمارها وخيرهـا، فهـي مصرية أولى بخيرات مصر – تكمل – أين حقها كمواطنة، تقتات على ما تخرجه مصر إلى الخارج، كيف تأكل أفـواه غيرها وهي بنت مصر جائعة؟ لا تدخل لها بما يقـع مـن سرقات داخل مصر، لصوص بنوك، لصـوص قـروض، لصوص مناور، لصوص سطوح، هي هنا على الحافة، تدير ظهرها لما يسرق خلفها لا يخصها، فوق كوبري التـاريخ، قبل أن تدخل الشاحنات لتعبر بوابة الصادرات، تقتطـع مـا يفي حاجتها وقد كفى.

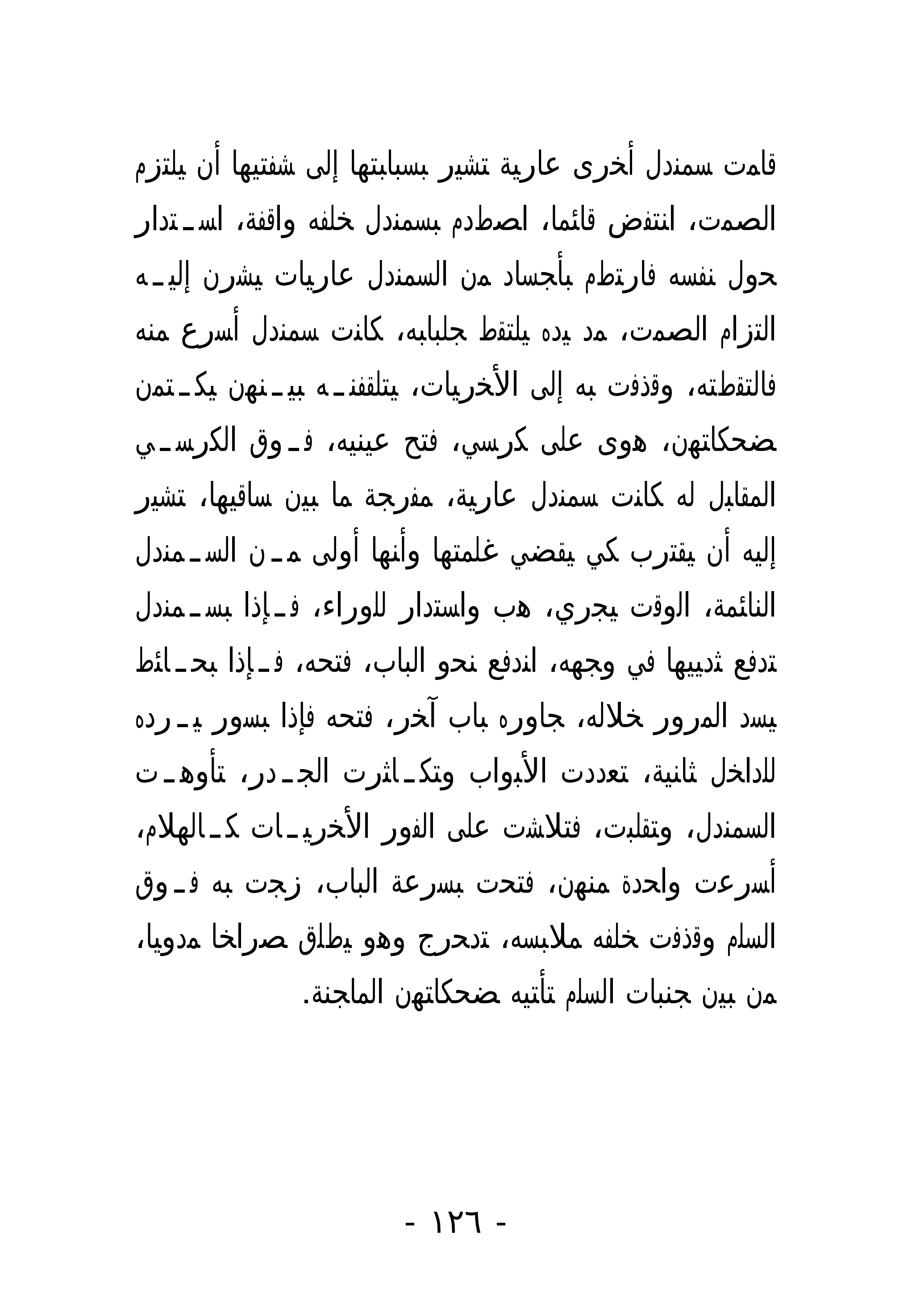
المهندس، هجر التعليم منذ صغره، كانت تشون بـالحوش أجولة الثوم والبصل، يتم فرزها قبل التصدير، طرده أبـوه



وهو مراهق، في منتصف الليل بعد أن هبت شقيقته من نومها فزعا، حينما شرع في نزع سروالها، بصق أبوه على وجهه، وطرده من الحوش، عمل تباعا فوق عربات الشحن، ذات فجر، كان يتوسد جوال ثوم فوق شاحنة، هب من نومه في وجل، كان الجوال يشد من تحت رأسه، سقط وهوى فوقه، وإذا به على الأرض مرتطما فوق جسد سمية الدكر والجوال بينهما، ضحكا معا، وكانت صداقة جمعتهما، إلى أن توفي أبوه، ورث عنه أرض الشونة، أنشأ فيها ورشة إصلاح السيارات، وعرف بعدها باسم المهندس.

اتخذت سمية من الحوش نقطة انطلاقها خلف السيارات والشاحنات من غزواتها، أتحفت المهندس بصناديق التفاح والبرتقال واللحوم والكبد، لا تفرق بين الصادرات في البضائع والواردات، كان كلما دس في يدها نقودا تقبلها، وتمس بها على جبهتها.

ألقى المهندس بجسد السمندل على السرير، جاورها بعد أن تجرد من ملابسه، ما كاد يلمسها حتى ربتت أصابع على ظهره العاري، استدار فإذا بسمندل أخرى خلفه عارية، أدار للأمام عينيه، كانت السمندل أمامه تغط في نومها، من خلفها



قامت سمندل أخرى عارية تشير بسبابتها إلى شفتيها أن يلتزم الصمت، انتفض قائما، اصطدم بسمندل خلفه واقفة، استدار حول نفسه فارتطم بأجساد من السمندل عاريات يشرن إليه التزام الصمت، مد يده يلتقط جلبابه، كانت سمندل أسرع منه فالتقطته، وقذفت به إلى الأخريات، يتلقفنه بينهن يكتمن ضحكاتهن، هوى على كرسي، فتح عينيه، فوق الكرسي المقابل له كانت سمندل عارية، مفرجة ما بين ساقيها، تشير إليه أن يقترب كي يقضي غلمتها وأنها أولى من السمندل النائمة، الوقت يجري، هب واستدار للوراء، فإذا بسمندل تدفع ثدييها في وجهه، اندفع نحو الباب، فتحه، فإذا بحائط يسد المرور خلاله، جاوره باب آخر، فتحه فإذا بسور يرده للداخل ثانية، تعددت الأبواب وتكاثرت الجدر، تأوهت السمندل، وتقلبت، فتلاشت على الفور الأخريات كالهلام، أسرعت واحدة منهن، فتحت بسرعة الباب، زجت به فوق السلم وقذفت خلفه ملابسه، تدحرج وهو يطلق صراخا مدويا، من بين جنبات السلم تأتيه ضحكاتهن الماجنة.

ارتدى داخل سـيارته ملابسـه، أغلـق نوافـذها، أدار محركها، استدار خلف الأكشاك، يطلق نفيرها، أسرعت نحوه سمية، من فرجة شباك سيارته، راح يصرخ:

- يا بنت القحبة، دول يسيبوا الحوش حالا، فهماني يـا مرة؟ ياللي ما حصلتي راجل من مرة.

فتح الجفري الباب، اندفعت للداخل سمية:

- فين سيدك الحاج زيدان؟

أقبل زيدان:

- خيرا؟

- حالا، تسيبوا الحوش، فين سمندل هانم؟

هبطت السلم وقالت:

- كنا سنتركه، ما حدث من مهندسكم هذا لا يليق بخلق أو دين، كاد يعتدي علي لولا..

قاطعتها وهي تصفق بكفيها:

- أهي لولا دي.. فيها اللي فيها، شفت مـنكم العجـب، بصوا، فوق كوبري التاريخ نهشت ونبشت، ضـربت وسرقت، قابلت وشوفت، أنتم بقى اللي سرقتوني من فوق كوبري التاريخ، دخلتوا علي بالحنجل والمنجل،

لا أعرف لكم أصل ولا ملجأ، حالقين راسكم، عادمين ناسكم، والفلوس الأمريكاني باين علـيكم سـرقينها، ونازلين تتفسحوا في إسكندرية، تلات مقاطيع زيكم لا بتخرجوا ولا شوفت زاير داخل لكـم، وكلـه كـوم والحافر كوم، إكرام العامشة شافت لك فـي المنقـد، قالت دي مرة مرصودة لها خدام، بره شوفوا حـوش أو زريبة تلمكم بره.. بره.. دا أنتم شبهة.. ياللا يـا حوش يا لامة.. ياللا يا أم راجلين.. يا للا يـا بيئـة ياللي بتكحوا جير.

مثلما دخلوا الحوش، خرج ثلاثـتهم، لا يصـدق مولانـا الأمير زيدان الحسيني المغربي أذنه، أخذ يحدث نفسه:

- طردنا من الأندلس، من مـراكش، مـن الأحـواش والزرائب.

اعتصرت حلقه غصة وجنين ضحكة، كبتهـا فتعملقـت، فانطفر هديرها في ضحكة وانطلقت دافقة في دمعة.. فوقف حائرا حيث هو.

في طريق الخروج، لمحت سمية الجفري يحمل شـوالا، أمعنت النظر فيه وصرخت:

- شوالي يا حرامية يا نور، اقفلوا باب الحوش.

أخرجت من سقف حنكها موسها، هدجت فـي سـيرها، حكت في الأرض قدميها، ثم انطلقت كالسهم حافية، قفـزت إلى أعلى ثم هوت بضربة خاطفة على الشـوال تصـرمه، ضربة مسددة أسقطت رزم النقود تباعا، انطفـرت حـدقتاها صارخة:

- فلوسي.. تحويشة عمري.

وإذا بالعشش تفرغ سكانها، تحلقوا حولها، أمسكت سـمية بخشبة، رسمت حول الجوال دائرة زاعقة:

- يا فلوس الشقي يامه راحت في شوربة ميه.

تصفق، والنسوة يصفقن ويرددن خلفها:

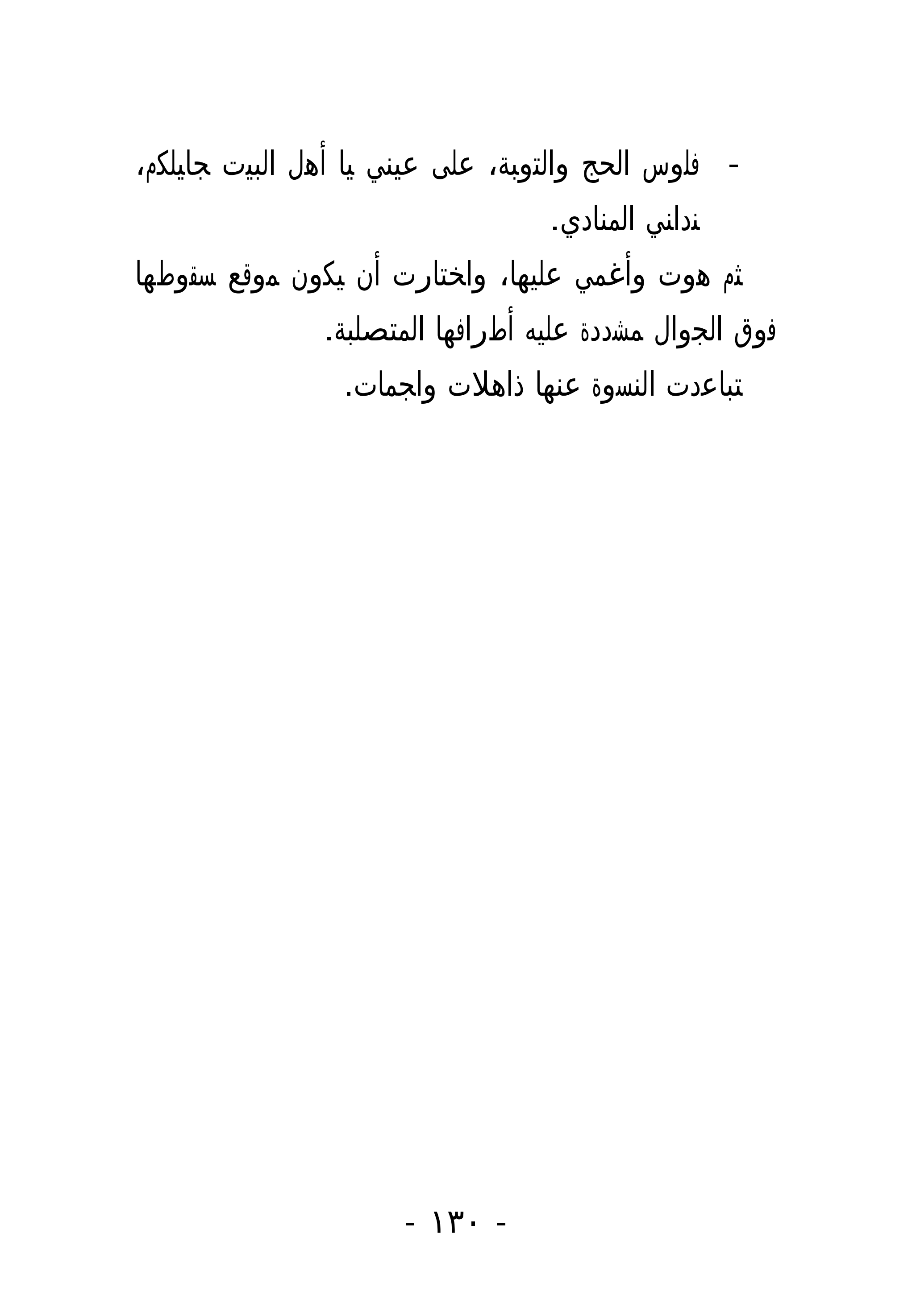
- يا شوالنا يا محشي فلوس.

على جتتنا عدي ودوس.

جذبها المهندس جانبا يهمس في أذنها:

- طول عمرك موعودة بالأشولة، بس ده موش زي أي شوال، النص بالنص يا روح أمـك لأجيـب عاليهـا واطيها، سمعاني يا دكر.

استدارت عنه صارخة:



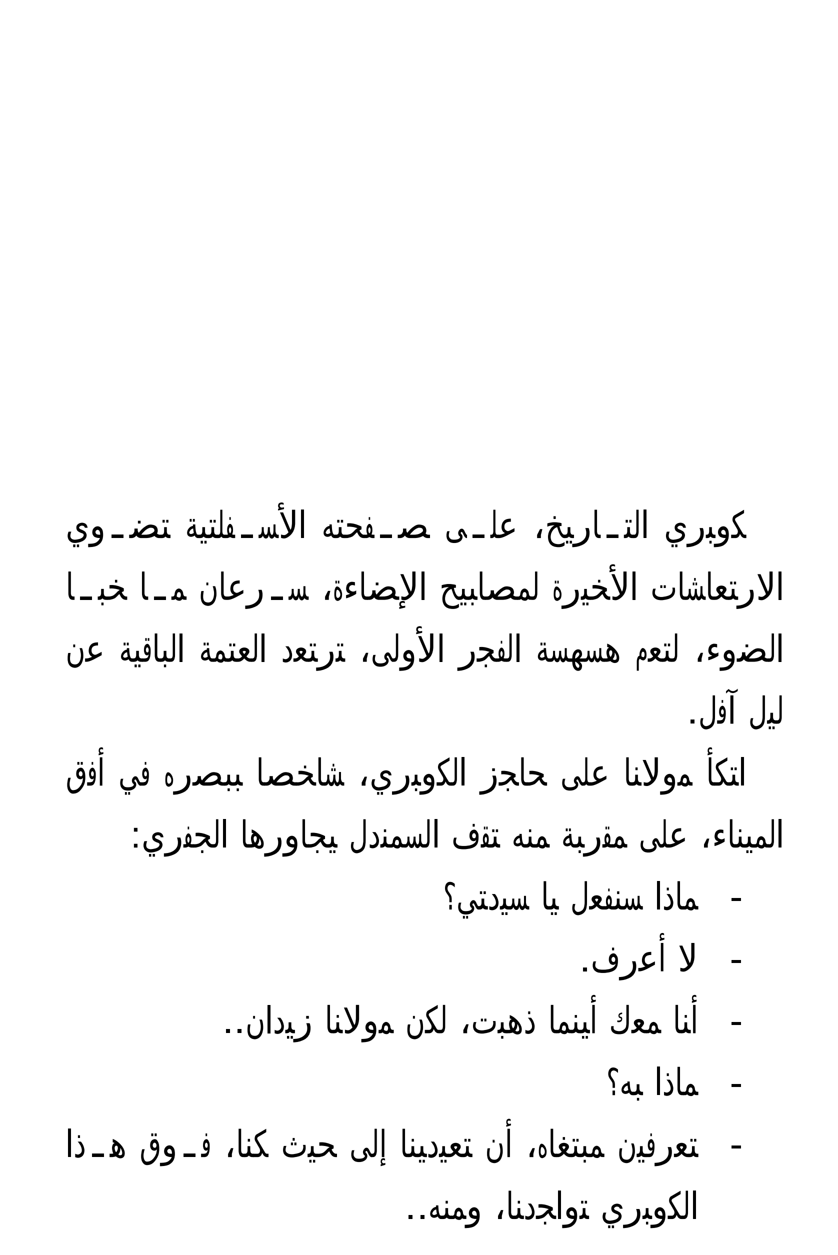
- فلوس الحج والتوبة، على عيني يا أهل البيت جايلكم، نداني المنادي.

ثم هوت وأغمي عليها، واختارت أن يكون موقع سقوطها فوق الجوال مشددة عليه أطرافها المتصلبة.

تباعدت النسوة عنها ذاهلات واجمات.

الفصل العاشر

الخروج



كوبري التاريخ، على صفحته الأسفلتية تضوي الارتعاشات الأخيرة لمصابيح الإضاءة، سرعان ما خبا الضوء، لتعم هسهسة الفجر الأولى، ترتعد العتمة الباقية عن ليل آفل.

اتكأ مولانا على حاجز الكوبري، شاخصا ببصره في أفق الميناء، على مقربة منه تقف السمندل يجاورها الجفري:

- ماذا سنفعل يا سيدتي؟
- لا أعرف.
- أنا معك أينما ذهبت، لكن مولانا زيدان..
- ماذا به؟
- تعرفين مبتغاه، أن تعيدينا إلى حيث كنا، فوق هذا الكوبري تواجدنا، ومنه..

لم تسمع كلماته، تحادث نفسها (وللتاريخ اتجاه واحد فقط، نحن حتى لم نعبره، كنا ولا زلنا في هذه النقطـة، لـم نـر الجانب الآخر من الكوبري، وهذه الشجرة ما زالت منتصـبة منذ ليال مضت، توارت خلفها سمية، ومن خلفها خرجت أنا عليكم، هي تتوارى في العتمة، وأنا خطرت للأمام.. لألتقـي بذاتي، أتذكر ياجفري كم كنت عجـوزا وتكبـل الأظـلاف قدمي، وبالحب اكتملت، ربما بمشـاعرك أنـت تجـاهي لا بمشاعر زيدان الذي أعشقه، أحببتني وبدوري أنا لـم أحـب سواه، هل يسأل الندى، لم تَنْسب قطراتـك علـى وجنـات الورود وفي ذات الوقت تسقط فوق الحديد والحجـر، لكـن تحت وهج الشمس يهيج بالندى الشوق، فيفنـى مـن أجـل الطراوة من جديد).

- سيدتي، اذهبي إليه، أخشى عليك منه.

(إن كان يضمر لي شرا، بمقدوري أن أرده وبكيل يزلزل الأركان ويقوض كباري التاريخ كلها، إن كان هو بقاتلي، فأنا لست بقاتلته.. شُلت يدي).

- اذهبي إليه.. سأنتظركما هنا.

اقتربت السمندل منه، جاورته:

- مولاي زيدان.
- ....
- ألا تجيبني؟

مررت أصابعها فوق أصابعه الناحلـة، كفكـرة عـابرة، انتزع كفه بسرعة، وعاد يحدق في أفق الميناء. تخامرهـا الظنون أنه تباعد عنها.. بل وأمعن فـي النـأي، كانـت لا تعرف اليأس وإن كانت تعرف الإرجاء.

* * *

تراكمت في الأفق السحب، ودمـدمت الأرجـاء برعـد يقصف بالآذان، ودفق الريح يهب وينـتفض.. مـن فـوق كوبري التاريخ.. أقبلت من بعيد (أم خميرة)، تتحامـل فـي ضعف ووهن، بلغت من العمر عتيا، يتلاعب الريح بملاءتها السوداء، تُفرد وتنبعج. أم خميرة، ندابة الكارانتينا القديمـة، وحيدة كما كانت، لم تتزوج وانقطعت بها الذرية. سميت بأم خميرة، ولا يعرف أحد اسمها الحقيقي، لأن النسوة بمجرد أن يشاهدنها تدخل العزاء، تختمر أحزانهن، تتفاقم في صدورهن موجات الوله، تهوى أكفهن باللطم تباعـا كرفيـف أجنحـة الذباب على الجيف، في رؤيتهن لها تدخل العزاء، بدعوة أو

بدونها، يتأكدن أن ميتهن مات بالفعل حتى وإن لـم تغـادر الروح حلقومه. تكشف من فتحة الملاءة، عينا واحدة، تحدق في الجالسات، إن رأتهن صامتات تطرح، على غير توقـع، الملاءة كلها عن رأسها، تكشف عينها الأخـرى الزجاجيـة لامعة البياض، غائرة في عتمة محجرها، مطلقـة صـراخا مدويا مجلجلا، فتتجاوب النسوة معها حتى تتصلب أطرافهن تشنجا، لكل ميت لديها له مناحة تناسب ميتتـه، مـن مـات مسلولا، مصروعا، محروقا، مبطونا، منتحرا، حتى الميـت اعتباريا وأصدر القاضي حكما، بعد غيابه الطويل، باعتباره ميتا، موتى الشباب والكهولة والعذارى، من مات جنينا داخل الرحم أو سقط خارجـه، مـن مـات بمـرض أو بدونـه، والهاربات مع العشاق وعدن إلى أهلهن جثامين. تنتقل عينها بين الجالسات والقادمات للعزاء، فتنوح بمناحة تناسـب كـل واحدة، دخلت (أم كابوريا) في عـزاء محـروقٍ فناحـت أم خميرة بمناحة الغرقى، فهوت أم كابوريـا متشـنجة، مـات زوجها غريقا، غطس لاصطياد القواقع ولم يصعد بعدها.

تغادر العزاء، ومعظم النسـوة غائبـات عـن وعـيهن، متشنجات، تهب أم خميرة من جلستها، تكبر وتحوقـل فـي

آذانهن، سرى همس خفي بين النسوة، أن أم خميـرة وهـي تكبر ا أكبر في الأذان، تنـزع حلـى النسـاء، السلاسـل والأقراط والدبل.

(في سبعينيات القرن المنصـرف، جلـس إليهـا أسـتاذ الأنثروبولوجي بجامعة الإسكندرية، دون كل مناحاتهـا فـي مؤلفه (القبريات) وفي كل مرة يخرج دامع العينـين، ماتـت أم خميرة عن عمر جاوز المائة، أصابها الخرس، تسرطنت غدتها الدرقية، أطبق الورم على أوتارها وحنجرتها إطبـاق أخطبوط ليس منه فكاك أو خلاص، عثروا تحـت وسـادتها على خريطة لمدافن (أم كبيبة) بغرب الإسكندرية، ورسـمت سهما يشير إلى قبر أهلها حتى لا تدفن في قبر غيره، لم يفتح – بعد دفنها – لأحدٍ.. اندثر).

بين الفينة والأخرى، تتردد على سمية وبيت المهنـدس، يحسنان إليها بإطعامها، تستطلع أخبار جيـران الكارانتينـا القدماء.

* * *

تطلعت السمندل في زيدان وقالت:

- الحالم، من يبحث عن الكواكب في الطين.

قال:

- نحن الكواكب.

قالت ضاحكة:

- الآفلة.

- صدقت، أسقطيني من جنتي وملكي إلـى الأحـواش والزرائب.

- لم أسقطك من جنة.

- حتى الأحواش طُردنا منها، نحن شُبهة، أبناء الملوك والجباه الشامخة.

- لنرحل من هنا.

- إلى أين؟

- أرض ا   واسعة.

- تخالين نفسك حواء، وآدم أنا، طُردنـا مـن الجنـة والجحيم معا، وعلينا أن نستكمل رحلة الأجداد.. حتى هنا ينتهي ترحالنا.

- لم أسقطك عن جنة، نزعت عنكم الأندلس.. حرمـت عليكم جناتكم، الحق لم تصنعوا الجنات.. بل صنعتم، الجحيم تستعر.

استطردت:

- أنا لم أخدعك، وبيدي أعدتك للوجود، وعدت أنا معك حقيقة لا تشوبها شائبة، أقراص الزمرد بـين يـديك، فقط تغشى الغشاوة العيـون، كمـا غشـيت عينـي الكاردينال، راح يبحث بعيدا كما بحثت أنت، وكمـا سيبحث فيما بعد غيرك، كانت الأقراص بـين يـدي الكاردينال أكواما، أقراص الزمـرد فـي الصـدور محفوظة.. وترتل في كل حين أوراقها، وما أحرقتـه هو الأقراص السالبة المغيبة.

قاطعها واستدار إليها:

- والحب؟
- لولاه ما كنت معك، ما كنت أنا.
- إن كان هذا حقا، أرجعيني وابقي أنت والجفري هنا.

تملصت من ذراعه:

- في عودتي موتي.. لا عودة مجانية للوراء.
- لم؟
- أنا لا أعود للوراء، أنا فقـط للعطـاء، والتجـدد، لا أنتكس، ما الذي ستكسبه إن عادت ليـالي الأنـدلس،

ليس المهم أن تعود بقدميك، لتعد إليها حاملا مشـعل التحضر والتفوق والنبوغ كما الأجـداد، كمـا كـان الأجداد الأوائل، في رجـوعي المـوت والأصـفاد والجدران، كيف تحكم علي بحياة المـوات، بعـد أن عشقت الحياة، والكون، والجمال؟.

ساد الصمت، قطعته بعد برهة:

- هل تذكر نقوش الحمراء وقصـور غرناطـة، تلـك النقوش والزخارف، الجدران تفقد صـلابتها فتلـين، وترتخي، حتى الجدران قد تميد خاف الجمال، وقلبك أنت كيف أنقش عليه أحبك.. أحبك يا رجل.

أدار وجهه:

- إذن لا عودة لنا، أصدقك الآن – أنت حواء والغواية معا..

* * *

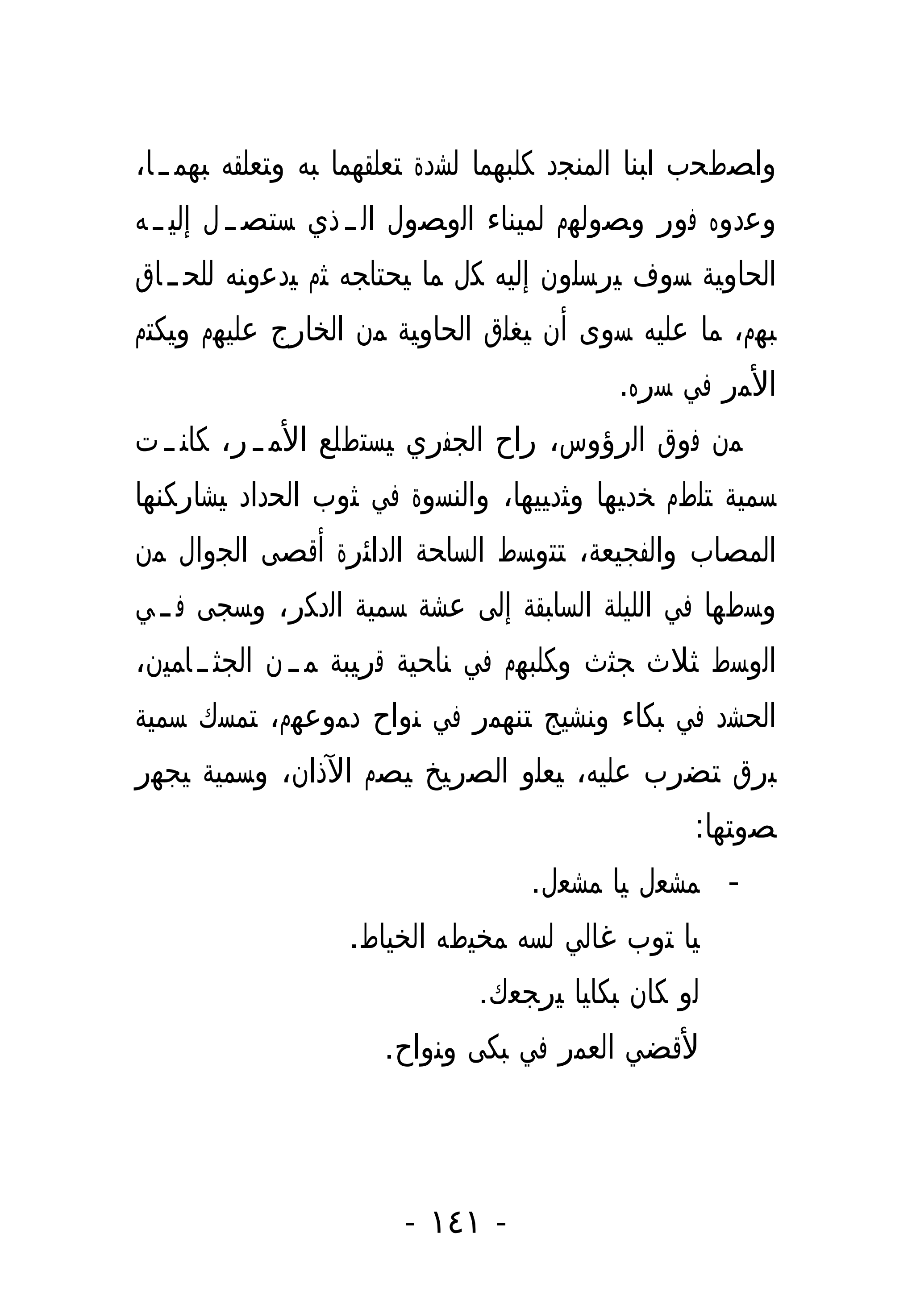
داهمت قوة من الشرطة الحوش، أفرغت سياراتها جندها مدججين بالأسلحة بعد أن تأكد لديها أن سمية الـدكر خلـف اختفاء شاحنة تحمل حاوية، دخلت الحوش لإصـلاح عطـل بها، نقل السائق إلى المستشفى الأميري، ظهر من تحليل دمه

ارتفاع نسبة مخدر أفقده وعيه، ولا زال حتـى الآن مغيبـا. الشاحنة كانت في جانب من الحوش أحاط الجند بها، اقتـادوا للضابط (بنجة) المسجل الخطر، كاد الضابط يجن، صـرخ وأمر بإحضار عتلة، حطموا بهـا الأقفـال، مـع الصـخب والضجيج ورؤية الشرطة في قلب الحوش خـرج السـكان، تساءل النسوة عما يجري حولهن، يـرهفن السـمع لحـديث الضابط مع بنجة، لا يصل لهن سوى همسات، سقط القفـل والجنزير، هتف الضابط:

- افتحوا الباب.

ضاقت على الحاوية الحشود، ترتفع الهمهمـات، تعلقـت العيون بالباب، فتح على مصراعيه، سقط على الأرض ثلاث جثث ورابعهم كلبهم، ارتفع الصريخ يبقر أجواء الفضاء.

بصعوبة خرج الضابط من وسط الحشود، يلقي أوامـره بإبلاغ النيابة للحضور والمعاينة وفتح محضر للواقعة، راح بنجة يبكي، لقد تخلف عنهم في اللحظة الأخيرة عندما تـذكر حزن أمه عليه وهو بعيد عنها خارج مصر، وأنه اشترى لهم من أموالهم مائة رغيف، وبخمسة جنيهات فلافل مع كـيس طرشي كبير، وسبعة جنيهات جبنة قريش مع جيركن مـاء،



واصطحب ابنا المنجد كلبهما لشدة تعلقهما به وتعلقه بهمـا، وعدوه فور وصولهم لميناء الوصول الـذي ستصـل إليـه الحاوية سوف يرسلون إليه كل ما يحتاجه ثم يدعونه للحـاق بهم، ما عليه سوى أن يغلق الحاوية من الخارج عليهم ويكتم الأمر في سره.

من فوق الرؤوس، راح الجفري يستطلع الأمـر، كانـت سمية تلاطم خديها وثدييها، والنسوة في ثوب الحداد يشاركنها المصاب والفجيعة، تتوسط الساحة الدائرة أقصى الجوال من وسطها في الليلة السابقة إلى عشة سمية الدكر، وسجى فـي الوسط ثلاث جثث وكلبهم في ناحية قريبة مـن الجثـامين، الحشد في بكاء ونشيج تنهمر في نواح دموعهم، تمسك سمية برق تضرب عليه، يعلو الصريخ يصم الآذان، وسمية يجهر صوتها:

- مشعل يا مشعل.

يا ثوب غالي لسه مخيطه الخياط.

لو كان بكايا يرجعك.

لأقضي العمر في بكى ونواح.

ويعلو ويستعر اللطم والصراخ. انطلقت إلى خارج السور تتبعها النسوة، اصطدمت بأم خميرة، هوت تحت قدميها فوق الكوبري تتشبث بأطراف الملاءة صارخة:

- اندبي يا أم خميرة مشعل.. المشعل يـا أم خميـرة.. المشعل انطفى، صوتي، اندبي..

تفتح أم خميرة فمها تزفر خواء، وتطلق خرسـا، قامـت سمية، استدارت نحو مولانا زيدان، مدت كفيها نحوه:

- ما شفتش مشعل يا حاج، شاب طولك وشعره أسـود، جدع شرع..

تتلفت حولها، تدلي نصفها العلوي من الحاجز صارخة:

- أنهو مركب يا خويا؟

أجابها شاب:

- الحاوية كانت حتشحنها المركب اللي هناك دي.
- وكان نفسه يروح فين.. المركب رايحه فين؟
- رايحه.. إسبانيا.
- على عيني.

تتعالى ولولتها وصراخها:

- يا لهو بالي.

يا لهو بالي.

حزني عليك يا غالي

ما يفارق بالي

أحاطت النسوة بها، يقفزن فوق أمشاط أقدامهن مثل حبات الذرة بلغت حد الفشار فوق سطح ملتهب، يطوحن رؤوسهن يمينا ويسارا، يلفهن الغبار، تتطاير شعورهن، مغبرات، يعلو الصراخ في أذني مولانا زيدان والسمندل، وتنوح سمية:

- قولوا للتربي ما يغوط في قبره.

ويخفف عليه رديم التراب.

دا الحيلة آخر صبري وصبره.

على قبره حفرش فرشة البواب.

ويصفقن:

- يا لهوي عليك وأنت بتصرخ رجعوني لأهلي.

لو كنت أدري كنت جيت أهجر داري وبلادي.

ارتعد جسد مولانا زيدان، والدوي يختـرق آذانـه، دوي الطبل المغربي وشخشخة رق سمية يهصر أسماعه، يحمـل تحطم شرفات ودوي سقوط أعمدة القصور وانهيار أحلامه.. تراجع الجفري للوراء يقول في ارتعاب:

- أهكذا العودة إلى الأندلس؟!

دوت ضربات قلب الأمير، يشق قلبه طريقـا مـن بـين ضلوعه، ويرتد ثانية إلى جوف مكمنه، يأتيه العويل:

- يا ألف حسرة على شبابه وأنسه.

كان العشم تجمعنا الليالي في عرسه.

يعلو ضرب الأكف على الأثداء والخدود.

مرقت سيارة، أقلت الجثامين، فشق الصريخ عنان السماء في دوي الرعد وقصفه، وانتقل النعيب إلى الأسرع:

- دا الحيلة دا الحيلة

على فين وخداه الترحيلة..

كان زيدان يريد الخروج لأي مكان في الكون، يميد رأسه مع نغمة النعيب وتصفيق الأكف، انسـحبت الأنفـاس مـن صدره، أدار عينيه نحو السمندل، مد يده نحوها، اقتربت في هدوء منه، تقرأ في عينيه، رفعت عينيها فيه هامسة: (جـاء في كتابي.. أن الأحب لدى قلبي هو قـاتلي) قفـز فوقهـا، اعتلاها، سقطا معا خلف النسوة اللاهيات عنهما، صرخ وهو يمسك بأصابع قدميها:

- أين ظلفك؟ انطلقي بي من هنا.

أقدم عليها ويا شر ما أقدم، وأنفذ ويا نُكر ما أنفذ، مـزق ثيابها، قبض على لحمها تحت ثديها، همست:

- إنها وحمة.
- لا أصدق.. إنها مشعرة، بغلتك من هنا.

صرخت السمندل وهو ينتزع الوحمة بفمه، خرجت بـين أسنانه مدممة، فح صوته:

أمسك ساقيها يثنيهما، سمع لهما تهشما، انتزع من جيبـه أعواد البوص المشذبة أطرافه، راح يرشقها في بطنها، انساح الدم المدرار على كوبري التاريخ، دس أصابعه بين نسـائل لحمها، يعلو صراخه، يتتابع نحيبه، شق في عنف صـدرها مفسحا ما بين ضلوعها، ينتفض في سرعة قلبها ثم تداخل في نفسه، انبثق للقلب جناحان، انطلق طائرا ريشـاته حمـراء وزمردي، ذيله ناصع البياض، فوق رأسه ثلاث ريشات من ذهب، أخذ يحوم في دائرة فوق كوبري التـاريخ ثـم حلـق عاليا، صياحه بين التغريد والنواح والشقشقة، استدار.. إلـى أن توارى خلف أفق الشرق الغارب.

فؤاد الحلو

القباري

٢٠٠٤/١٢/١